www.alkottob.com

سـقف من طين

روايـــــــة

www.alkottob.com

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: unecriv@net.sy

E-mail :

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنانة: سمر رمضان

www.alkottob.com

❑❑

www.alkottob.com

كفى الزعبي

ســقف من طين

*** روايــــــــــة ***

سانت بطرسبورغ 1998

www.alkottob.com

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

2000

www.alkottob.com

-1-

انطلقت السيارة تقلها إلى المطار مسرعة.

جلست بجانب النافذة وراحت تراقب شوارع لينينغراد المعروفة لديها جيداً وهي تتراكض مسرعة إلى الوراء كأنها السنوات تجمعت في تلك الليلة. تجمعت في ليلة واحدة وباتت تتسارع من على طرفي الشارع إلى الخلف.

استمرت السيارة بسيرها.

وكانت مريم تترك عمراً قضته في هذه المدينة يمر، يبعد ويصغر ليتحول في النهاية إلى نقط سوداء ترقد ساكنة في المكان وفي ذاكرتها.

كان الوقت ليلاً... وكانت المدينة هادئة لا يقلق نومها صوت السيارات القليلة التي تمر بين الحين والآخر، ولا حشرجات الشجر التي تداعبها رياح شباط الباردة.

استكانت البنايات على جانبي الشارع، وبدت لها عملاقة طيبة ومتسامحة أرهقها عبث الناس بها نهاراً، وهم في حركة دائمة يدخلون في أحشائها ويخرجون، يتراكضون بداخلها، يصفقون أبوابها ونوافذها، يتصارخون ويهدؤون. وهي بصبر أخرس تراقب الحياة الجنونية المشتعلة في داخلها، بانتظار هذا الليل، لتلقي كل واحدة رأسها على كتف الأخرى جذلى ومستكينة.

وبرغم أن الأضواء المترامية على الرصيف كانت تحاول جاهدة أن تخفف العتمة المحيطة بالمكان، فإنها كانت تبدو نقطاً صفراء معلقة تمتد مع استقامة الشارع لا تملك حتى أن تنير العمود المحمولة عليه. وتذكرت مريم ضوء القمر هنيهة.

كان ضوؤه يبدو لها أحياناً –وخاصة حينما تكون السماء رمادية– كشيب منفوش برأس عجوز أنهكته الأيام بالحفر على وجهه خطوطاً وتجاعيد. ومع ذلك،

www.alkottob.com

فحينما تصفو السماء ينساب الشيب خطوطاً شفافة يرسلها القمر، فتمتزج بسطح الثلج جاعلة من حباته لآلئ تتراقص في مكانها وتشع نوراً فضياً.

أدهشها هذا المنظر حين رأته أول مرة، فليس سوى قمر، ثلج وليل يسحب عتمته بحياء أمام تجلي هذا الانسجام الذي يهدي الأشياء أشكالها، فلا تعود تدرك أمن السماء ينبعث هذا الفرح أم من الأرض.

لم يكن قد مضى حينذاك وقت طويل على قدومها إلى مدينة موسكو، حيث قضت فيما بعد أول سنوات دراستها. وبقيت موسكو بالنسبة إليها المدينة الأم التي ولدت فيها ثانية.

وليس الثلج والقمر وحدهما اللذان أعادا تشكيل الحياة في داخلها.

كانت مريم في الثامنة عشرة من عمرها حينما قدمت إلى هذا البلد، ولم تكن خارطة العالم قبل ذلك توحي إليها بشيء سوى خطوط متعرجة تحصر في داخلها مساحات متفاوتة في الشكل واللون. وأكثر ما كان يثير فضولها في تلك الخارطة هو كيف استطاعوا أن يرسموا هذه التعرجات المعقدة بدقة، وهل هي بالفعل تصور الواقع أم أنها من خيال عالم مل من رسم جزء بدقته ثم أنهى الباقي حسب ما أملت عليه مخيلته.

أما الحدود الحقيقية التي لم تكن تشك بدقة تعرجاتها، فهي حدود قريتها الصغيرة التي أتت منها.

-2-

حل المساء بموعده كما لو كان مختبئاً وراء الهضاب بانتظار احتضار آخر شعاع للشمس، ليقوم بهيبة الفارس الذي خلت له الساحة كي يعترش الأفق ويلفه بعتمة لا متناهية.

ما زال الوقت مبكراً وليس من سبب أو حدث يدفع عقارب الساعة لتتراكض في دائرة سجنها الأبدي، فتستمر بالتنقل من دقيقة إلى أخرى على مهل، تاركة وراءها مسافات زمنية فارغة، تثير فيها رغبة عارمة في أن تُحشى بشيء ما، بحدث عابر يحطم هذا الملل.

وقفت مريم بجانب النافذة، وراحت تراقب الشارع الوحيد الذي لا تهدأ الحياة فيه، فقد كان امتداداً للنقطة الحدودية الشمالية التي ترامت القرية على أطرافها.

www.alkottob.com

كانت السيارات لا تكف عن سفرها ليلاً باتجاه الجنوب والشمال، وكان مرورها السريع يحدث ضجيجاً متقطعاً يخترق سكون القرية لحظاتٍ ويهدأ. ومع الزمن تعوّد الناس عليه وأصبح هذا الضجيج أحد مكونات السكون في قريتهم.

راقبت المشهد قليلاً ثم ابتعدت عن النافذة، باتجاه الباب، وقد كانت هي وأمها وأختها فاطمة يسكنّ إحدى الغرف في منزل بناه أخوها وشغل هو وأسرته بقيته، وكان باب الغرفة الوحيد مفتوحاً على شرفة مشتركة.

خرجت، ثم جلست على عتبة الشرفة المطلة على ساحة صغيرة انتشرت فيها بعض الأشجار المثمرة التي اعتاد أطفال أخيها على أكل ثمارها قبل أوان نضجها، عدا ثمار شجرتي الزيتون لتعذّر أكلها نيئة. وفي زاوية الساحة مدت شجرة العنب أغصانها باتجاهات مختلفة على الأرض، مشكلّة خيمة صغيرة ومأوى لكثير من الحشرات والزواحف. أما شجيرات الورد فقد أوشكت على اليباس نتيجة قلة الماء والإهمال وعبث الأطفال الدائم بها.

وفي الجهة الأخرى المواجهة للبيت والتي تحاشت مريم النظر إليها قامت غرفتان طينيتان كانت العائلة تسكنهما من قبل.

كان كل شيء في الساحة ساكناً وكأنه استسلم لحالة موت مؤقت.

أنصتت إلى الأصوات التي تأتي من الشارع، سمعت أحاديث خافتة من بعض المارة علت شيئاً فشيئاً، ثم عادت للهبوط تدريجياً مع ابتعادهم. وعلا صوت موسيقى ممزوج بصوت محرك سيارة وابتعد مسرعاً مع عجلاتها، ثم عاد السكون ليخيم من جديد باعثاً في نفسها الضجر. فقامت متجهة إلى الغرفة، حيث استلقت أمها على فرشة تراقب التلفاز في حالة ما بين النوم والصحو. وجلست فاطمة منحنية على كتاب تقرأ فيه. أثار مريم انحناءُ ظهرها فقالت:

-عدلي من جلستك وإلا ستصبحين قريباً كالعجوز الحدباء!

استفز الكلام فاطمة واعتبرته شتيمة فردت:

-سأبقي استقامة العود لك!

ضحكت مريم. ليكن. شجار عابر لا يضر، بل على العكس، فقد يقصر المسافة بين الدقائق التي أخذت تبدو أكثر طولاً من ذي قبل. وراحت تنظر إلى المرآة المعلقة على الحائط وتتأمل نفسها.

حديثهما أيقظ الأم، فنظرت حولها، وتأوهت من ألم ما في أحد جنبيها ثم قالت لمريم:

www.alkottob.com

–ما لك تروحين وتجيئين، جدي لنفسك مكاناً واجلسي فيه، ثم كفي عن النظر في المرآة لأن ممارسة ذلك ليلاً خطيئة لا يحبذها إلا الشياطين.

اقتربت مريم من أمها فجلست بجانبها وقالت مداعبة:

–وهنا المشكلة يا أمي، إنني لا أستطيع أن أجد لنفسي مكاناً.

وطبعت قبلة على جبينها. فقالت الأم:

–حسناً. حسناً. بما أن حركتك سهلة قومي واجلبي لي كأس ماء من المطبخ فقد جف ريقي.

وكانت الأم تعاني من مرض السكري الذي يجعلها عطشى دائماً.

كان المطبخ عبارة عن إحدى تلك الغرفتين الطينيتين، بعد أن تركتهما الأسرة لتسكن المنزل الجديد، وبقيت هاتان الغرفتان تحملان في زواياهما ذكريات سنين طويلة لحياة أسرة فقيرة، أما مريم فقد رسخت في ذاكرتها وإلى زمن طويل قادم بقايا ليال من الطفولة كان يعجنها أبطال القصص والخرافات التي كان يرويها الكبار في سهراتهم أيام الشتاء وهم متحلقون حول مدفأة يسكبون الشاي من إبريق وضع على سطحها، يرتشفونه، ويشرعون برسم العالم خارج الجدران التي تحيط بهم غامضاً، معتماً ومرعباً، فتلتصق هي بأمها حين تسكب تلك القصص في ذهنها وفكرها كما كانوا يسكبون الشاي الساخن في كاسات زجاجية صغيرة وشفافة. فتحرقها، تؤلمها محدثة غشاوة دائمة على شفافية عالمها البريء.

لم ترفض طلب أمها وقامت خارجة من الغرفة، متجاوزة الشرفة والمسافة التي تفصل البيتين باتجاه المطبخ. وصلت ووقفت بباب الغرفة، استجمعت قواها ومدت يدها تتحسس مفتاح الكهرباء في الحائط، وقد قفزت كل حكايات الجن والعفاريت سريعاً إلى ذاكرتها، فتخيلت أن هناك الكثير منهم يجلس الآن في هذه العتمة ويمارس وجوده بطريقة غامضة لا تدركها، وبأنها حين ستشعل النور ستعكر ليلتهم مما سيدفعهم للهجوم عليها. ارتعبت وشعرت بحاجة كبيرة للصراخ عل أحدهم يأتي لنجدتها مستدركاً المصيبة التي ستحل بها. واصطدمت يدها بمفتاح الكهرباء فضغطت عليه بسرعة وكأنها بشجاعة اضطرارية تطلق الرصاصة الأولى في معركة لا تعرف من سيكون ضحيتها.

ارتدت إلى الوراء بعض الشيء. أدارت وجهها باتجاه غرفتهم باحثة عن أي معلم يشير إلى الحياة الحقيقية، يكون نصيرها في هذه المعركة. لم تر شيئاً وكان لا مفر من المواجهة. بحذر شديد بدأت تنقل نظرها إلى الأمام. ودائرة النظر

www.alkottob.com

راحت تميل للاستقامة وتأبى الميلان باتجاه الغرفة المنارة.

شعرت لحظة بالاستخفاف بذاتها ومن هذا الخوف المعيب وحاولت أن تقنع نفسها بأن كل ما تفكر به هراء تافه وليس لكل ما تتخيل من وجود. وتقدمت خطوة، إلا أن الخوف كان أقوى فكانت خطوتها بطيئة.

وفجأة خطرت لها فكرة بأن تكون الخطوة القادمة إلى الوراء لتتلوها خطوات أسرع وأسرع كي تستقر في النهاية بجانب أمها. لكنها تذكرت الطلب- كأس ماء. ما أسهله من طلب. سأجلبه وستشرب ولن تعرف أبداً أي زمن عشته في هذه اللحظات- فكرت بداخلها، واستدركت: -الآن سأدير وجهي وبنظرة سريعة سأدرس المكان، طريق العودة ورائي أعرفه جيداً، سأهرب وسأصرخ، وسأوقظ النيام إذا كان لا بد من ذلك. تحصنت بهذه الأفكار التي مدتها بشيء من القوة ونظرت أمامها بحركة سريعة.

كانت الطاولة التي تحمل بابور الكاز وبعض الأواني والكاسات في مكانها تحت النافذة كما تركوها قبل المساء. وبجانبها الخزانة القديمة التي خصصت رفوفها العليا للأواني، ورفوفها السفلى للمؤن التي قليلاً ما تكون موجودة، أما الواجهة المقابلة للباب والتي كان ينام فيها الأب قبل موته، فقد باتت ركناً للأكل في النهار إذ يفرشونها بفرشات إسفنجية رقيقة السماكة، تطويها الأم مساءً على صندوق قديم في الجهة المقابلة للمائدة والخزانة، تاركة مكان الأب لخوائه الموحش.

كل شيء ساكن لا يوحي بأن أحداً قد عبث به.

وبرغم ذلك -فكرت- فالجن غير مرئي.

شعرت بالرعشة تجتاح جسمها وهي تتقدم باتجاه المائدة حيث سطل الماء والكاسات.

ماذا لو أمسك بيدها الآن وهي تغرف الماء؟

ماذا لو فاجأها من الخلف، أو قفز من النافذة، أو من سطح الخزانة حيث يجلس الآن هناك ويراقبها.

وباتت تلك اللحظات عمراً مشبعاً بالكوابيس وانصهرت كل أحلامها بالحياة في حلم واحد، هو أن ينتهي هذا الرعب وتعود سالمة إلى جانب أمها.

ثم أدركت أن السرعة هي سندها الوحيد في هذه المحنة، فمشت شبه راكضة باتجاه السطل وهي تحاول أن تركز نظرها عليه متحاشية النظر إلى أي شيء

www.alkottob.com

آخر، تناولت كأساً، وغرفت الماء بيد ترتجف.

بالفعل، فقد صدقت مخاوفها. خرج العفاريت من جحورهم، وقفز الجن من السقف والنافذة قارعين طبولاً تنذر بالغضب الشديد على من تجرأ واقتحم مأواهم ساكبين الماء عليها وعلى الأرض والمائدة. فحملت الكأس وولت هاربة دون التفات إلى الخلف لإبقاء نظرة على ما يجري وراءها. دخلت الغرفة لاهثة ويداها ترتجفان.

سألتها أمها بقلق عن سبب القرقعة التي سمعتها فأجابتها:

–لقد خفت كثيراً من العتمة وخيل إليّ أن أشباحاً تتحرك فيها ونتيجة الخوف،– استمرت بتردد، لا أدري قد أكون سكبت سطل الماء..!

علقت فاطمة:

–وأنا لا أعرف من أين لك هذه الحماقة!

وقامت من مكانها قاصدة المطبخ لترى ما الذي حدث. لكنها عندما وصلت باب الغرفة وقفت منتصتة إلى ضجيج كان قريباً من باب الباحة الخارجي وعلى وجهها علائم التساؤل، فقد توقفت السيارة أمام بيتهم. لا ريب في ذلك، لكن من سيكون زائر المساء هذا؟ صمت الجميع بانتظار طرق الباب إذا كان الزائر يقصدهم.

-3-

أيقظها في الصباح الضجيج الذي أحدثته أمها وهي تحرك مفتاح المدفأة باتجاهات مختلفة كي تكتسب نارها وهجاً أكثر زرقة، وكانت المدفأة قديمة من طراز (فوجيكا) المصنوع محلياً تقليداً للأصل الياباني.

قالت الأم:

–الفتيل بحاجة للتبديل، فقد تلف ولم يعد صالحاً للاستعمال.

وبالفعل فقد كان يخرج من المدفأة بعض الدخان نتيجة عدم احتراق الكيروسين الكامل وتحوله لطاقة حرارية، فيملأ الغرفة برائحة ثاني أكسيد الكربون الكريهة مسبباً فيما بعد الصداع في الرؤوس.

وما إن قامت مريم من فراشها الدافئ حتى لسعها البرد فأسرعت متخذة

www.alkottob.com

لنفسها مكاناً بجانب المدفأة لتخزن في جسمها شيئاً من الدفء يساعدها على بدء يومها.

كان صباح خميس في أوائل شهر كانون الأول في إحدى السنين الغابرة. ويوم الخميس عادة كانت تحضر أختها شماء من العاصمة، حيث تكمل هناك تحصيلها الجامعي لتقضي نهاية الأسبوع مع عائلتها.

خرجت مريم من الغرفة بعد أن ارتدت جاكيتاً صوفياً قديماً فوق بيجامة قطنية أوشكت على التثقب في منطقة الركب، أما البلوزة التي ورثتها عن شماء، فقد توبرت كثيراً مما جعل الشعر المتساقط من رأسها بعد عملية تصفيفه يلتصق بالوبر. وبقيت قدماها حافيتين. فراحت تبحث في باحة الدار عن حذاء تحتذيه، وما زالت الرؤية غير واضحة أمامها نتيجة انتقالها المفاجئ من الغرفة المظلمة نسبياً إلى الخارج حيث سطعت الشمس في سماء صافية. وتعجبت كيف لم تقو شمس بهذا السطوع على بعث الدفء في الجو. ثم رأت شبشباً تحت خزان المياه المحمول على جدارين منخفضين من طوب صفط بعضه فوق بعض بلا دقة أو مبالاة، فاتجهت نحوه وهي تمشي على رؤوس أصابعها كي لا يلامس قاعا قدميها المسطبة الباطونية الباردة المرتفعة عن مستوى الأرض بمقدار درجتين، والتي كانت بمثابة عتبة ومدخل للغرفتين الطينيتين في أيام الشتاء أما في الصيف فكانت ملاذاً من الحر في الغرف، فكانوا يفرشونها ويجلسون قاضين سهراتهم تحت السماء المرصعة بنجوم كان يحلو لمريم أن تراقبها طويلاً.

سحبت بيدها الشبشب البلاستيكي المتقلص إلى درجة التيبس وأدخلت قدميها فيه ببطء وهي تقاوم برداً لامسهما، محاولة اعتياده.

انحنت لتحرك مقبض الحنفية المتدلية من أسفل الخزان فتدفق منها ماء بارد لم تستطع أن تبقي يديها تتبللان به طويلاً، فسحبتهما بسرعة وأخفتهما تحت إبطيها فترةً قصيرة، ثم عاودت الكرة: ألصقت أحد كفيها بالآخر وأحنتهما معطية إياهما شكلاً مقعراً، فتجمع فيهما ماء بارد سرعان ما رشقت وجهها به حابسة أنفاسها ثم شهقت من شدة البرودة. أدارت المقبض بالاتجاه الآخر فكف الماء عن السيلان ونهضت لتعود مسرعة إلى الغرفة.

كانت الرياح الشرقية الباردة تهب في هذا الوقت تلسعها وتمتص الرطوبة بعطش مما كان مكشوفاً من جسمها، تاركة وراءها وجهاً ويدين وقدمين قد تقشرت وتسطح جلدها.

دخلت، نشفت وجهها وهي تشعر بألم نتيجة الجفاف والتسطح، ولاحظت أمها

www.alkottob.com

ذلك، فقدمت لها دهون "الفازلين" الذي تقتنيه عادة كعلاج سحري ورخيص لحالات مختلفة، من تقشر وجفاف الجلد إلى الجروح والدمامل.

تناولت مريم بإصبعها كمية من الفازلين ودهنت وجهها ويديها وقدميها ليشكل طبقة دهنية سميكة وعازلة يمتصها جلدها ببطء.

وسألت وهي تدلك يديها:

-أين فاطمة؟

-في الغرفة الأخرى تعد الإفطار، انظري إذا كانت تحتاج لمساعدة.

في الغرفة الأخرى جلست فاطمة مقرفصة على الأرض في الزاوية وقد ثنت قدميها كي لا تلامس مؤخرتها الأرض الباردة، وراحت تغسل كاسات الشاي بماء سخنته وبمسحوق غسيل يستعملونه لجميع الأغراض المنزلية بما في ذلك الحمام.

وقد غطت أرض الغرفة طبقة أسمنتية -كانت بمثابة البلاطة- مدت بميلان خفيف ينحدر باتجاه الزاوية لينتهي بماسورة لتصريف المياه تخترق الحائط لتصب في الطرف الآخر في حفرة كانت تفوح منها رائحة كريهة بسبب ركود المياه القذرة فيها وبسبب تبول الأب فيها ليلاً موفراً على نفسه مشقة الذهاب إلى المرحاض الذي يقبع وحيداً بعيداً عن الغرف.

دخلت مريم وألقت تحية الصباح على فاطمة ثم سألتها إذا كانت تحتاج إلى مساعدة فأجابت فاطمة:

-نعم. اسكبي جزءاً من اللبن الرائب وحضري الخبز كي يفطر أبي.

تململ الأب في فراشه، فبدأ واضحاً أنه لم يكن نائماً بل مستيقظاً بانتظار دعوته للأكل. ولأن أمر نومه أو صحوه كانا سيّانِ لجميع أفراد الأسرة، فقد بقى مستلقياً في فراشه.

تقدمت منه مريم ورفعت الغطاء عنه وهي تتذمر من ثقله.

كان غطاء أبيها عبارة عن بطانية قديمة ولحاف من الصوف ثقل وزنه كثيراً بسبب الرطوبة وعدم تنفيش وتشميس صوفه منذ زمن بعيد.

-نعم لقد تكسرت جوانبي منه- أجابها الأب واستطرد: -أنتن في الغرفة الأخرى تنمعن بدفء المدفأة، أما أنا هنا فأمك تنتظر اللحظة التي أتجمد فيها وأموت من البرد.

قال ذلك وهو يحاول النهوض كي يجلس، فساعدته مريم مبدية حيادية تجاه

www.alkottob.com

كلامـه، ورفعـت المخـدة ووضـعتها وراء ظهـره كـي تعزلـه عـن الحـائط البـارد، ثـم انحنت وتناولت ببرود السكين التي ظهرت على الفرشة بعد أن رفعت المخدة، فلم يكن ذلك بالمنظر المفاجئ لها إذ كان أبوها يضع السكين تحت مخدته دائماً قبل أن ينام معتقداً أن أحداً ما سيقتحم الغرفة عليه ليلاً. فسألته:

-ألا تقول لي متى ستكف عن هذه العادة؟

فتمتم الأب في البداية بكلام غير مفهوم، ثم بدأ صوته يميل إلى الوضوح حين ادعى بأنه قبل ليلتين سمع خربشة وضجيجاً عند النافذة، حيث كان أحدهم يحاول دخول البيت من خلالها، ولولا أنه قام من فراشه حاملاً السكين بيده وصارخاً لما اختفى الآخر. فسألته فاطمة:

-وهل استوضحت فيما بعد من كان؟

صمت الأب قليلاً ثم قال بصوت منخفض:

-على ما يبدو كانت قطة!

انفجر ضحك الأختين عالياً. فنظر إليهما الأب في البداية وبعينيه تساؤل، ثم راح هو الآخر يضحك وكأنه اكتشف فجأة بأن ما رواه عبارة عن طرفة! اهتزت كتفا الأب اللتان برزت عظامهما نتيجة النحول وهو يضحك فبدا كطفل بائس نادراً ما يداعبه أحد. أثار منظره شفقة عارمة في قلب مريم فتوقفت عن الضحك، وتوقفت فاطمة أيضاً وسألت:

-حتى لو كان ما تعتقده صحيحاً، أتظن بأن هذه السكين المثلومة التي لا تقوى حتى على قطع الماء ستحميك!؟

-على الأقل سأخيفهم بها.

-ومن هم؟ القطط؟

-اللصوص.

-وماذا سيسرق اللصوص؟

-سيجدون ما يسرقون!

لم تستطع فاطمة ولا أحد من قبلها أن يقنع أباها بعبثية مخاوفه، واستمر هو في الزمن القليل الباقي من عمره يضع السكين تحت مخدته قبل نومه. استسلم الجميع لهذا السلوك واعتبروه أحد مظاهر الشيخوخة والمرض، ولم يدر بخلد أحد أنه قد يكون أحد مظاهر الوحدة!

www.alkottob.com

وهذا ما اكتشفته مريم بعد زمن طويل حينما كانت تتذكر أباها.

أعدت فاطمة ومريم الفطور. وكانت الرياح الشرقية ما تزال تهب في الخارج مثيرة للغبار ومنذرة بفصل شتاء جاف.

راحت مريم تساعد أباها على الأكل، فقد كان جسده الأيمن يرتجف بشدة نتيجة خلل في الأعصاب، أصابه في الماضي البعيد الذي لا تعيه. ونقلت فاطمة الصحون إلى الغرفة الأخرى ثم لحقتها مريم بعد إنهاء مهمتها. تحلق الجميع على الأرض تتوسطهم صحون الطعام القليلة، وشرعوا يأكلون. ومن جديد تكررت المصادفة التي تحدث دائماً. كان أخوها قاسم يأتي بصحبة بعض أطفاله لزيارتهم في أوقات تتصادف مع وقت الطعام عادة. اكفهرت مريم وحاولت فاطمة أن تتعامل مع الأمر ببرودة، أما الأم فراحت توسع لهم مكاناً وتدعوهم للمشاركة في الأكل.

كان الطفلان يأكلان بنهم شديد فبدا لمريم أنهما يعانيان من جوع تاريخي لا يشبع. وكانت طريقتهما في الأكل مقرفة، فكانا يحاولان بأيد قذرة أن يجمعا أكبر قدر ممكن من البيض المقلي في لقمة واحدة وكأنها فرصتهما الوحيدة للأكل، فيتناثر البيض الذي يزيد حجمه عن حجم الخبز المحمول عليه ليتساقط وهو في طريقه إلى الفم في الصحون الأخرى. وكانت أعراض الزكام الذي لا يشفون منه أبداً في الشتاء وفي الصيف أحياناً ظاهرة عليهما جيداً، فكانا يستنشقان أنفاسهما بين اللقمة والأخرى ساحبين معها إلى الداخل كمية من المخاط الأصفر الذي ما يفتأ ينحدر من جديد باتجاه الفم.

فقدت مريم الرغبة في إكمال طعامها وقامت فقالت الأم:

-أكملي طعامك.

-لقد شبعت!

ظهرت على وجه قاسم ابتسامة خبيثة، فعدل من جلسته مستغلاً مكانها ومفسحاً مساحة أكبر لطفليه. أما هي فجلست في الخارج على طوبة مسندة ظهرها إلى جدار غرفتهم الطيني، شادة بيديها ملابسها على بعضها تفادياً لتسرب الهواء البارد إلى جسمها، ملقية برأسها إلى الخلف، فبدا وجهها لامعاً نتيجة ما وضع عليه من الفازلين عندما واجه الشمس، وظهر بريق في عينيها حينما ركزت نظرها على قرص الشمس المشتعل محاولة استيضاح معالمه، لكنها سرعان ما أسبلت جفونها خوفاً من زوبعة الغبار التي أثارتها الرياح الشرقية.

www.alkottob.com

-4-

كان قاسم قد عاد للقرية قبل خمس سنوات بعد أن سافر للخارج تاركاً المدرسة في محاولة للحصول على عمل، أمضى هناك عدة سنين منتقلاً بين الدول العربية المجاورة، ليعود أخيراً ومعالم الكبرياء تعلو وجهه برغم أنه كان يجرجر أطراف الفشل.

فرحت الأم كثيراً لعودته. فهو ابنها البكر والوحيد بين أربع فتيات تكبرهن عائشة، وهي على قدر كبير من التعقل، وكانت بدورها قد تركت المدرسة بعد أن سافر قاسم لتتفرغ لعمل الخياطة الذي كان يجني للأسرة دخلاً قليلاً يساعدها على العيش بالإضافة إلى الدخل السنوي الذي يحصلون عليه نتيجة تضمينهم للأرض الزراعية التي يملكونها. أما شماء فقد كانت تقضي وقتها في أحد الصفوف الأخيرة في المدرسة، وفاطمة تصغرها بثلاث سنين لتتلوها مريم وهي الأصغر في الأسرة.

قالت الأم فرحة:

-من الأفضل أنه عاد، فالرجل نفسه في البيت ضروري-متناسية وجود الأب.

ردت عائشة:

-معك حق، ولهذا ما كان يجب عليه أن يسافر في الأصل، لقد كان بإمكانه العمل والبقاء هنا قائماً مقام الأب، لكنه فضل السفر، وها قد عاد فاشلاً فارغ اليدين. لا أدري ماذا كان يفعل هناك طول هذه المدة. وأين كان يضيع النقود التي كان يجنيها.

وقد كانت عائشة تشير إلى أنه كان يجني نقوداً لكنه كان ينفقها في ملذات وترف معيب، كما فهموا من تلميحات عن ذلك من أشخاص في القرية سافروا معه للعمل في الخارج.

ردت الأم:

-لا تقولي ذلك، فهو أخوك الوحيد!

-ما قلته هو الحقيقة، والحقيقة هذه أقولها كي تفهمي من هو ابنك الوحيد هذا، شخص أناني لا يحب إلا ذاته ولا يفكر إلا في ملذاته.

www.alkottob.com

لم يعجب الأم كلام ابنتها وراحت تبرر لابنها:

-لست محقة. إن ما حصل هو قدره. ولا حيلة للإنسان أمام القدر!

وبرغم اختلاف وجهات نظر الأم وعائشة حول شخصية قاسم وسلوكه فإنهما اتفقتا في نهاية الحديث على أن تبقى وجهات النظر هذه في داخل البيت، وأن تبدي الأخوات فرحهن بقدوم قاسم أمام الآخرين من الأقارب والجيران، حيث يجب على الواحدة منهن حتى ولو امتلأ فمها بالدم أن تبلعه بدلاً من أن تبصقه فيعرف الناس ما بها من هم، لأن بيت النساء الخالي من الرجل ذو سقف منخفض يسهل على الآخرين أن يدوسوه.

سمعت مريم الحديث الدائر وتخيلت أن سقف الغرفة ينخفض وينخفض ليلامس رأسها ضاغطاً عليها خانقاً إياها. تنهدت مؤكدة لنفسها أنها ما زالت قادرة أن تملأ رئتيها بالهواء. ثم شعرت بمرارة وقرف حين تذكرت فكرة الفم المليء بالدم فبصقت.

إلا أن المرارة بقيت عالقة بحلقها زمناً طويلاً.

كان قاسم متوسط الطول، بشرته برغم بياضها في الأصل مسمرّة نتيجة تعرضها الطويل لأشعة الشمس، ذا أنف كبير وعينين صغيرتين بلون عسلي شفاف يشعان بريقاً ينم على غرور وأنانية.

ومنذ قدومه راح يعلن عن وجوده في البيت الذي غاب عنه طويلاً، وذلك بمتطلبات وتذمر لا ينتهي من الفقر الذي يحمل الجميع مسؤوليته، فالأب مريض، والأم لم تنجب له أخاً يساعده على تكوين نفسه، والأخوات عددهن كثير ولا فائدة ترجى منهن.

ولم يمض وقت طويل حتى وجد عملاً، فقد وافق أحد الأقارب الذي يعمل متعهداً في البناء على تشغيله معه عاملاً، بعد أن توجهت الأم إليه بطلب المساعدة.

تنفس جميعهم الصعداء حينئذ. فها هو أخيراً سيجني نقوداً، ثم إن وجوده في البيت مؤخراً كان سبباً لتوتر دائم فيه، كونه بالإضافة لما سبق عصبياً حاد المزاج.

وباشر قاسم العمل. داوم الأسبوع الأول بانتظام، فكان يخرج صباحاً ويعود مع حلول المساء، لكنه بعد فترة قصيرة سرعان ما أصبح يعود إلى البيت مبكراً. تساءلت الأم بشك بعد أن تكرر ذلك:

www.alkottob.com

-هل أنهيت العمل؟

-نعم

-لكن نصف النهار لم يمض بعد!؟

-أعود متى ما طاب لي ذلك!

-وعملك يا بني؟

فاحتد وقال وبنبرة متعالية:

-فليذهب إلى الجحيم هو وعمله. أيعتقد أنني غلام صغير خلقت لتلبية أوامره؟!

قالت الأم باضطراب:

-لا بد أنك مخطئ في تقدير الأمور يا بني، فالرجل طيب وافق على تشغيلك مساعدة للعائلة برغم أن لديه من العمال ما يكفيه، ولا أعتقد أنه عاملك بطريقة سيئة، فالمعروف عنه أنه حسن السلوك والتعامل مع الجميع.

ازدادت لهجة قاسم حدة:

-أجل. أجل. أنا المخطئ! قولي ذلك ولا تترددي، فأنا أعرف ما تفكرن به، الكل أسوياء إلا أنا الأعوج الوحيد في العالم، وكي أبقى سوياً بنظركن يجب علي أن أتحمل إهاناته وأوامره التي لا تنتهي: اسكب الماء يا قاسم، احمل السطل يا قاسم.

فقاطعته الأم:

-وهل توقعت أن يشغلك مديراً وراء مكتب؟

فعلا صوته وبعصبية قال:

-لا! ولكني لم أتوقع أن يعاملني بهذه الطريقة، وكأني شخص تافه. لن أتحمل بعد الآن هذا الذل... فأنا..

استفز كلامه عائشة، فلم تستطع الصمت وقاطعته:

-ومن تكون أنت؟ أتظن نفسك..

وقبل أن تكمل كلامها. كان الشرر قد تطاير من عينيه وقفز باتجاهها صافعاً إياها بكف ثقيلة أحدثت رنيناً عندما لامست وجهها بسرعة وقوة. وراح ينهال عليها وعلى شماء التي هرعت لنجدتها بالضرب والشتائم مفرغاً كل حقده على الحياة فيهما، محملاً إياهما من جديد المسؤولية فيما هو عليه من بؤس.

www.alkottob.com

وتدخلت الأم تحاول إبعاده عن أختيه وصرخت حين طالتها بعض اللكمات طالبة النجدة من أي كان. أما فاطمة فوقفت متجمدة في الزاوية بداية ثم تدخلت لنجدة أختيها وأمها وتلتها مريم، ليتحول الجميع إلى كتلة واحدة ترابطت بأيد لا يميز الناظر من فوق لمن تعود هذه اليد أو تلك، تتحرك باتجاهات مختلفة ويصدر منها صراخ وبكاء بقي يطن بأذن مريم زمناً طويلاً!

-5-

كان السعال المتقطع الذي يطلقه الأب وصوت آلة الخياطة هما كل ما يمكن سماعه من خلال نوافذ الغرفتين الطينيتين.

أما الضوء الأصفر الذي انبعث من تلك النوافذ فقد كان يوحي بانسجام عفوي، كئيب مع اللون البني للجدران.

وامتد ظل السياج الغربي المنخفض الذي يحيط بالساحة ليغطي كل شيء فيها حاجباً بقايا ضوء أرجواني كانت تسحبه الشمس بهدوء وهي تختفي وراء الهضاب.

وعلى الجهة الشرقية للسياج جلس قط أسود ينتظر العتمة كي يتوحد معها ليتسنى له التسلل إلى خم الدجاج القابع في الزاوية التي تصل جدار الغرفة مع السياج من الجهة الجنوبية.

كان القط صامتاً، ساكناً وكأنه مغرق في التفكير. وبدا كنتوء في سطح السياج، منظره أوحى بالجوع، فعلى ما يبدو لم يكن يجد ما يكفيه من الطعام في النفايات التي ترمى أمام البيوت مساء، ليقوم هو وغيره من القطط بنثرها على الأرض بحثاً عن عشاء فيها.

لكنه الآن قد طمع بوجبة أدسم، خاصة وقد بدأت تظهر في النهار بعض صيصان صغيرة تتمشى في الساحة بجرأة وحرية، فقد كانت الحراسة مشددة من قبل الدجاجة الأم ومن الناس الذين لا يكفون عن الحركة في اتجاهات مختلفة، فينسحب مبتعداً بالعاً ريقه مطأطئاً رأسه تعتريه مشاعر الخيبة حينما تفشل كل محاولاته بالاقتراب.

وها هو الآن جالس بهدوء ينتظر الظلمة، كان يدرك بحدسه أن الناس سيسكنون بدورهم في جحورهم، ولن يشكلوا عقبة في طريقه، أما الدجاج الكبير

www.alkottob.com

فهو قادر على التصدي له وسيتحمل منه بعض الخدوش. فبالنهاية ليس هو الهدف. والهدف –وما ألذ– هو ذلك الصوص الصغير المكور الذي تمشى أمامه نهاراً مستفزاً لكل رغباته.

سيحصل عليه إذا بذل جهداً، وسيبتعد به، وسيجد لنفسه مكاناً آمناً من الناس والقطط الأخرى. سيأكل وينام مشبعاً أحلامه ومعدته. كل ما عليه فعله هو التسلل بهدوء زاحفاً على بطنه دون إثارة ضجيج، فالضجيج سيخرج الناس من جحورهم ليحطموا كل خططه وآماله.

لم يكن القط متسرعاً في تنفيذ كل ما كان يدور بخلده، فجلس هادئاً على حافة السياج. ولم يكن يعلم أن خيبته الجديدة لن يكون سببها الضجيج ولا القطط الأخرى.

ولا أي شيء آخر حسب حسابه طويلاً. وإنما ذلك البريق القوي الذي ما أن حلت العتمة حتى أخذت عيناه تشعان به وكأنهما نجمتان في سماء واطئة. سرعان ما لاحظتهما الأم حين خرجت من الغرفة. فتناولت حجراً صغيراً ورمته به لاعنة إياه شاكة بنياته. ماء القط بصوت عال حين فاجأه الحجر. وقفز بسرعة عن السياج وولى هارباً.

اتجهت الأم إلى خم الدجاج كي تتيقنّ من إغلاقه فأضافت بعض الحجارة وسدت جميع الثغرات التي خلفتها سابقاً، شاتمة القطط بكل ما أسعفتها به ذاكرتها من شتائم، ثم عادت إلى الغرفة، وهي تلعن بانفعالية مبالغ بها القطط الجائعة التي تعكر صفو البال وتوجب عليها الخروج مراراً إلى الساحة كي تطردها. وكأن الأم بذلك وجدت مبرراً لحركتها المتوترة ومنفذاً تفرغ من خلاله الحنق والغضب الذي تركه في نفسها شجار النهار مع قاسم.

وفي الغرفة جلست عائشة وراء آلة الخياطة متجهمة الوجه تتابع ما بين يديها دون أن تعير انفعال أمها اهتماماً يذكر، وراحت فاطمة ومريم تحاولان إغلاق بابي خزانة الملابس المتواجهين بأن ربطتا حبلاً صغيراً وصل ما بين مقبضيهما. أما شماء فكانت كئيبة، تحاول القراءة في كتاب. حين لاحظت انفعال أمها سألتها:

–هل أغلقت خم الدجاج جيداً؟

–بلى. لكن القطط ماكرة!

–إذاً اجلسي واطمئني، فالقطط لن تستطع زحزحة الأحجار!

www.alkottob.com

جلست الأم وأخذت تتمتم بكلام غير مفهوم. وظلت عائشة تخيط دون أن تظهر اهتماماً بالحديث. بل ركزت نظرها على ما تخيط، وبحركات سريعة، بدت أسرع بكثير من العادة، راحت تضغط بقدميها على دعسة الآلة.

وبرغم حوار شماء مع أمها فإنها لم تفتأ تتحسس الخموش التي تركتها أظافر قاسم على وجهها. قالت وهي تفكر:

–لن أذهب غداً إلى المدرسة. سأدّعي المرض!

وبدون أن ترفع عائشة رأسها قالت بنبرة حادة:

–ستذهبين إلى المدرسة ولن تدعي المرض!

–ولكن انظري إلى وجهي، كيف سأبرر ذلك؟

وانفجرت حينئذ عائشة:

–لا حاجة للتبرير. اذهبي إلى المدرسة فقط. أم أنك تريدين أن تجلسي مثلي وراء هذه الآلة الملعونة كي توفري لأخيك ثمن علب السجائر؟! هذا هو ما يريده بالضبط، أن تخرجن من المدرسة لتشتغلن بأي عمل كان، حتى ولو.

وصمتت ولم تجرؤ على لفظ ما دار ببالها، ثم استمرت: –حتى ولو خادمات في بيوت الآخرين كي يجلس هو شيخاً في صدر البيت يأمر ويضرب.

وظهرت الشهقة في صوتها ولم تستطع أن تكمل كلامها لأنها انفجرت في بكاء عنيف كانت قد حبسته في صدرها بعد الشجار بكبرياء، مخفية شعورها العميق بالإهانة!

أما مريم فشعرت بأن ذهنها بدأ يعي العالم والحياة، فراحت تبكي معها بنفس الحدة والألم. بينما أخذ عالمها الصغير يكبر ويكبر متحولاً إلى وحش كبير يوشك أن يلتهمها ويقضمها بأسنانه الحادة. وودت كثيراً لو تبقى طفلة إلى الأبد، كي لا يكبر عالمها ذاك.

-6-

بقي قاسم في فراشه إلى ساعة متأخرة من الصباح، وكانت عائشة وأمها قد بقيتا وحيدتين في البيت بعد ذهاب الأخوات إلى المدرسة، وخروج الأب قاصداً إحدى الدكاكين القريبة ليجلس أمامها. كان ذلك سبيله الوحيد في الترفيه عن

www.alkottob.com

نفسه، إذ يتخذ مكاناً مواجهاً للشمس ويروح بلا مبالاة يراقب حركة الناس البطيئة.

بدأ قاسم يتململ في فراشه. أخرج يديه من تحت الغطاء وشدهما متمطياً، فاتحاً فمه على سعته وهو يتثاءب، شاداً عضلات وجهه، دافعاً بخديه إلى أعلى لتختفي تماماً عيناه اللتان غارتا في جورتين وطمرتا.

وحين استرقت عائشة نظرة إليه وهي خارجة من الغرفة، غير راغبة في أن تراه أو تحادثه، بدا لها وكأن وجهه عبارة عن فم واسع مفتوح أبداً.

نهض من الفراش. وطالب أمه بالفطور، فأعدته وجلست إلى جانبه، فراح يطوي الخبز وقتاً طويلاً في يديه قبل أن يغمسه باللبن الرائب، فسألته الأم:

–لماذا لا تأكل؟

غمس اللقمة الكبيرة في اللبن، ثم دسها في فمه فشكلت نتوءاً بارزاً في خده وكأنه دمل كبير، وراح يلوك ويلوك دون أن يغلق فمه.

ظلت الأم صامتة ترتشف الشاي، وما أن بلع اللقمة حتى باشر الكلام:

–لقد قررت أن أعمل بالبناء. ولكن ليس كعامل. وإنما..

ولم يكمل،

فسألت الأم: –وإنما ماذا؟

–أريد أن أشتري أدوات البناء لأكون أنا صاحب العمل. فأنا أجيد المهنة وأعتقد أن عملي سيكون ناجحاً.

صمتت الأم ثم تساءلت: –ولكن من أين لك النقود كي تشتري؟

فأجاب بشكل متقطع:

–لا أدري. فأنا لا أملك أية نقود. لكني فكرت لو..

وصمت. وبدا واضحاً للأم مرماه، وأدرك هو أنها فهمت ما يقصده. الأرض! لقد باعوا أول مرة قسماً منها كي يوفروا له مصاريف الطريق وأجور النقل حين سافر.

وقد عاد فاشلاً. وخسروا الأرض وثمنها.

والآن؟ اعتلت وجه الأم ملامح القلق ولم تناقشه، فخرجت.

كانت عائشة جالسة في الغرفة الأخرى خلف آلة الخياطة، فاقتربت منها الأم وقالت:

www.alkottob.com

–قاسم يود أن يبدأ بمشروع عمل جديد.

لم تجب عائشة واستمرت بالخياطة. فاستطردت الأم:

–إنه يود شراء أدوات البناء ليكون صاحب العمل!

نظرت إليها عائشة وكان التساؤل مفهوماً على وجهها. فقالت الأم:

–هو في الحقيقة لم يقل شيئاً ولكني فهمت أنه يقصد الأرض.

أوقفت عائشة آلة الخياطة وسرحت في أفكار كثيرة. فقالت الأم بحسرة:

–لو بقي في الخارج لكان أفضل، فمنذ أن عاد اشتعلت المشاكل في البيت. وما من هيبة للأب كي يمسك بزمام الأمور ويبعث الرهبة في قلب هذا الولد الطائش. فقالت عائشة:

–دعي زوجك بحاله فهو مريض ومسكين. ثم ليس هذا موضوعنا

وصمتت فترة قبل أن تكمل ثم قالت وهي تفكر:

–ولم لا إذا كان فعلياً ينوي العمل. دونمان أو ثلاثة من الأرض لن يغنيانا.

فلنبع وليشتر ما يحتاجه من أدوات العمل، لعله أخيراً يعقل ويبدأ بتحمل المسؤولية.

راحت الأم تنظر باندهاش وإعجاب شديد بابنتها التي تتكلم بمنطق الحكيم العجوز بالرغم من صغر سنها النسبي. أحست بثقل قد زال عن كاهلها، وبعاصفة تهدأ في الأفق قبل أن تثور.

وتقرر أن يزورا العم إبراهيم في المساء.

-7-

يُحكى أن أبا قاسم رحل في شبابه من بيت أبيه ودخل الجيش ثم حارب في فلسطين إذ أصيب هناك بشظايا قنبلة جعلت الجزء الأيمن من جسمه يرتجف. ويقال أيضاً إن هذه رواية غير صادقة وإن أبا قاسم ولد بهذا الشكل. المهم إن مرضه ذاك قد زاد من سوء وضعه في أسرة أبيه، فعانى منذ نشأته تمييزاً واضحاً في علاقة أبيه بأبنائه.

كان لأبيه، وهو أحد وجهاء العشيرة الكبيرة في القرية، زوجتان، إحداهما أنجبت له أبا قاسم وابنتين والثانية وهي المحببة لديه أنجبت ثلاثة أولاد وثلاث

www.alkottob.com

بنات.

ولم يكن الأب يخفي مشاعره تجاه أبنائه، فكان في الوقت الذي يخص أبناء الزوجة الثانية بمودة وعطف شديدين، لا يتوانى عن وصف أبي القاسم بالمسكين الساذج، حتى إنه كثيراً ما تمنى لو مات في بطن أمه قبل الولادة واكتفى بثلاثة أبناء ذكور. والشيء الوحيد الذي قدمه له هو أن زوجه امرأة من خارج القرية ففتيات القرية حينئذ لم يرضين به زوجاً.

وبعد موت الأب قام الأبناء بتقسيم الأراضي التي ورثوها بشكل غير عادل. فقد خص أبناء الزوجة الثانية أنفسهم بقطع الأراضي الأكثر أهمية وقرباً من القرية مستغلين طيبة وسذاجة أخيهم أبي قاسم مبقين له قطعة أرض زراعية بعيدة عن القرية.

مما أدى إلى انتعاش أحوالهم وظروف معيشتهم، بينما أخذت ظروف أسرة أبي قاسم بالسوء. ومن ثم افتعل الأخوة أسباباً تافهة للخلاف مع أبي قاسم وقاطعوه موفرين على أنفسهم عبء أسرة فقيرة تقربهم، حتى الأخوات كن على علاقة سيئة به لأن وضعه كان يثير فيهن الحرج.

إلا إبراهيم، فقد كان على قدر من الطيبة يجعله يشفق على أخيه عادة، فلم يقاطعه واستمر بعلاقة ودية معه ومع أسرته.

كان إبراهيم الأخ الوحيد الذي تعلم، وأنهى تحصيله المدرسي فعين مباشرة بعد ذلك معلماً في إحدى مدارس المدينة المجاورة، وقضى عمره في مهنة التدريس، لهذا أطلق عليه في القرية اسم المعلم.

كان أصلع الرأس يهوى القراءة كثيراً. فحول إحدى غرف منزله الذي ورثه عن أبيه إلى مكتبة ضخمة تحوي المئات من الكتب، لكنه برغم قراءته الكثيرة، واختزان ذهنه لكم ضخم من المعلومات، فإن ذلك لم ينعكس على حياته اليومية بشكل ملموس، اللهم إلا اعتبار أهل القرية له معلماً مثقفاً. وقد زاده هذا الشيء فخراً سيما وأنه سرعان ما أخذ موقع أبيه في العشيرة وأصبح أحد وجهائها الحكماء.

كانت حياته في منتهى الرتابة. فكان يومياً بعد عودته من العمل يجلس في غرفته (المكتبة) ويشرع يقرأ واضعاً نارجيلته بجانبه يسحب أنفاساً عميقة منها بين الفينة والأخرى.

أما زوجته فقد كانت أمية تجهل القراءة والكتابة، تحب النظافة كثيراً، سمينة،

www.alkottob.com

بيضاء البشرة ذات وجه دائري مكتنز وعينين واسعتين وخدين كأنهما كرتان حمراوان ألصقتا بوجهها. وكان يهمها كثيراً أن تؤدي جميع الواجبات الدينية مصرحة دائماً أنها تقوم بذلك عن نفسها وعن زوجها الذي لا يجد وقتاً للصلاة بسبب القراءة الملعونة.

ولم تكن طبيعة العلاقة بينهما واضحة، إذ رغم الاختلاف الكبير بين شخصيتيهما فإن حياتهما كانت هادئة، وعلى الأقل لم يسمع يوماً عن شجارات دارت بينهما، وبرغم ذلك كان برود واضح يحسه الجميع يسود علاقتهما!

وكان بيتهم برغم قدمه يبدو أكثر حداثة من بيت أبي قاسم، فكان مكوناً من أربع غرف طينية اصطف بعضها بجانب بعض. وبنيت واجهتها الأمامية من الحجر الأبيض، فمنحها قدراً من الفخامة والوقار، وشيدت أمام الغرف شرفة واسعة غير مسقوفة، محاطة بسياج منخفض وُضعت على حافته علب الحديد الكثيرة المملوءة بالخضرة والورود، وقام البيت مع الشرفة على ارتفاع عدة درجات عن مستوى الأرض، ووضعت على جانبي الدرج أيضاً أصص الورد. فزاده هذا العلو فخامة.

وغصت الساحة أمام البيت بأشجار السرو العالية، وارتفعت بجانب المدخل الرئيسي شجرة فلفل بري ضخمة.

وكثيراً ما توجهت أسرة أبي قاسم مساء لزيارة بيت العم إبراهيم بغية قضاء السهرات ومشاهدة التلفاز الذي لم يقتنوه بعد. لكن زيارتهم في ذلك المساء كانت لسبب آخر. فقد كان العم مستشار العائلة في الأمور المهمة ووصياً على أموالها.

انطلق الجميع عدا قاسم، فقد تعود أن يقضي سهراته خارج البيت بعيداً عنهم.

ولسوء حظهم في ذلك المساء وبعد وصولهم بيت العم إبراهيم قطع التيار الكهربائي. اضطروا أن يقضوا السهرة في ضوء الشموع. ولعل ذلك كان عاملاً مساعداً على الحديث دون الجلوس ومراقبة التلفاز الذي قد يشدهم وينسيهم همومهم اليومية.

جلسوا على الشرفة وأضيئت الشموع، فارتسمت سريعاً على الحيطان خيالات الجالسين مضخمة. وبدت كأشباح ظهرت ما إن أطفئ ضوء التيار.

استلقى العم على فرشة واضعاً نارجيلته أمامه وطوى الكتاب بجانبه.

ثم جلبت زوجته ما لديها من فواكه كضيافة، وراحت تقشر البرتقال بالسكين

www.alkottob.com

محاولة ألا تفسح المجال لأحد آخر كي يقوم بذلك، لأن منظر تقشيره باليدين وخاصة حينما تتسخ البرتقالة البيضاء بعد إزالة القشرة الخارجية بالأظافر كان يثيرها كثيراً.

بدأت الأم الحديث، وسرعان ما قاطعتها عائشة بنبرة هادئة فشرحت موضوع بيع الأرض وعمل قاسم بلغة معقولة مقنعة.

سحب العم نَفَساً عميقاً من نارجليته قبل أن يعلق على كلامها، فاستغلت زوجته الفرصة لتدلي بأسئلة مستوضحة التفاصيل. وأجابتها الأم. كان العم قد حصل بذلك على فرصة لمزيد من التفكير ووزن الأمور قبل البت برأي نهائي، وقال:

-أنا أتفق مع عائشة في الرأي. فقاسم يبحث دائماً عن مبررات للهروب من العمل. أما إذا انصعنا لرغبته وقدمنا له ثمن أدوات البناء فلن يكون أمامه من سبب للتهرب. على الأقل نكون من جانبنا قد وفرنا كل ظروف العمل. وآمل أن يكون ذلك حافزاً له للالتزام والانتظام. وهو في الحقيقة شاب ذكي وبإمكانه النجاح لو أراد. ولكن يقلقني من جانب آخر أن يغريه منظر النقود فيعود سريعاً إلى عاداته السيئة. يجب أن يكون هناك ضمانات، يجب عليه أن يفهم أن الأرض ستباع من أجل عمله، كي يصبح معيلاً لأسرته وسنداً لأخواته. لا من أجل ترف يوم أو يومين.

وأخذ نفساً عميقاً من نارجليته ثم استطرد:

-على كل حال لا أريد افتراض الأسوأ منذ البداية. ولنأمل خيراً، خاصة إذا كان يؤكد بأنه يجيد المهنة ويهوى ممارستها. لنتكل على الله، فلعل ذلك يكون بشير خير للأسرة ولنفسه، فالعمل قد يصقله ويصنع منه رجلاً مسؤولاً.

فقالت الأم مؤكدة:

-نعم. لقد كان متحمساً، وشعرت به صادقاً برغبته في العمل والاستقرار.

فرد العم: -هذا جيد. فلنتكل على الله إذن وأعتقد أن ثمن ثلاث دونمات سيكون كافياً.

ووافقته الأم وعائشة:

ارتاح جميعهم لذلك. شعروا ببصيص أمل يلوح في الأفق إشارة إلى تحسن أحوالهم وتغير قاسم فيبدأ بتحمل المسؤولية ويصبح معيناً وسنداً حقيقياً لأخواته. وساد قليل من الصمت بعد ذلك إذ راح كل منهم يفكر فيما قيل وفيما سيكون.

www.alkottob.com

ومن جديد بادرت زوجة العم بالحديث لكن بموضوع آخر يناسب تلك السهرات، خاصة بعد أن شعر جميعهم بشيء من الراحة. وما أن سمعها زوجها حتى أخذ الكتاب ليقرأ، لكن ضعف الضوء منعه فطواه وراح يستنشق الدخان من نارجليته محدقاً في نقطة أمامه.

قالت زوجته:

–كان ذلك قبل يومين. أصبت آنذاك بأرق شديد في الليل ولم أستطع النوم، فقمت قبل حلول الفجر أتوضأ استعداداً للصلاة ودخلت تلك الغرفة –وأشارت بيدها إلى الغرفة الوسطى التي توفي فيها في الماضي حماها الجد –وكان الجو ما زال مظلماً، فأردت إشعال النور إلا إنني رأيته جالساً أمامي في صدر الغرفة، لقد كان الجد بعينه جالساً مرتدياً ملابس بيضاء ووجهه مستدير كالقمر يشع منه نور بهي أنار العتمة، ويحمل بيديه قرآناً كريماً يقرأ فيه بصمت. وبعث الله في قلبي الطمأنينة فلم أخف منه بل اقتربت وألقيت عليه السلام، فلم يجبني وظل يقرأ. وكنت أرى شفتيه تتحركان لكني لم أسمع صوته، فجلست بجانبه ورحت بدوري أقرأ ما استذكرت من الذكر الحكيم. وما إن حلّ الفجر حتى رأيته يقف ويتجه نحو الباب. مشى خطوات ثم اختفى وتلاشى في ضوء الفجر.

أطلقت الأم وأبو قاسم بعد هذه القصة: سبحان الله! وبقي العم محدقاً إلى تلك النقطة، وكأنه في عالم آخر. أما الأخوات فقد بدا على وجوههن شيء من الشك في حقيقة ما قيل.

ثم راحت الأم تروي قصصاً أخرى مطلقة العنان لخيالها، عن أموات آخرين كانوا من الصالحين في حياتهم، وبعد مماتهم صاروا يحضرون إلى بيوتهم بثياب بيضاء، وكان زوجها أبو قاسم يقاطعها أحياناً مصححاً بعض المعلومات والأسماء، ثم شرعوا يروون قصصاً أخرى عن الجن والعفاريت والغولة الشريرة التي تتجول في الليالي عند حدود القرية مؤكدين أن أشخاصاً قد رأوها ونجوا منها بأعجوبة بعد أن كانت على وشك التهامهم.

ورأت مريم شجر السرو في الساحة يتحرك ملوحاً بأيد كثيرة، وخيل إليها أن شجرة الفلفل البري ساحرة يتلاعب الريح بشعرها.

www.alkottob.com

-8-

بسملت الأم حين خرجوا من بيت العم إبراهيم وواجههم الزقاق المظلم، مشى الأب أمام الأم وبناتها، وبقين هن في صف واحد يمشين وراءه بخطى سريعة.

ولسبب ما التزم الجميع خط سير يحاذي جدران البيوت المنتهية بأسيجة بنيت من حجارة كبيرة مختلفة الشكل وصُفَّ بعضها فوق بعض، فبقيت بينها فراغات وجحور يصدر منها صفير زواحف وحشرات مختبئة.

كانت نسائم أيار تهب بلطف لتستعيد من الشجر ما امتصه من رطوبتها حر النهار، وعندما تتسلل من خلال بعض النوافذ المفتوحة لداخل البيوت، تداعب هناك نار الشموع جاعلة ظل النوافذ يتراقص بحزن على أرض الشارع، متحدياً ظلاماً كالحاً تصعب رؤية أي شيء من خلاله.

وقد وضع شبك حديدي على بعض تلك النوافذ التي لاحظت مريم أنها فتحت في نقطة عالية من الجدران، وفسرت ذلك بأن أصحاب هذه البيوت قد حصنوا أنفسهم بهذه الطريقة من الغولة.

مشى جميعهم صامتين مسرعي الخطى وكأنهم في حالة تأهب لسماع صوت أو حركة تفاجئهم من الخلف، إلى أن انتهى الزقاق، واتصل بشارع أوسع كان معبداً بطريقة سيئة يتخلله الكثير من الحفر. تنفس جميعهم الصعداء مصرحين بانتهاء حالة خوف كانت تعتريهم. فمن الممكن أن يمر أحد ما في هذا الشارع يؤنسهم. ولكنه بدوره كان شارعاً مظلماً ساكناً قد غط سكانه في سبات عميق.

قالت الأم:

–لعنة الله عليهم، يبقون التيار في النهار ويقطعونه في الليل! وما حاجتنا إلى الضوء في النهار؟!

فضلت الفتيات التزام الصمت وعدم التعليق. استمر الأب يتقدم الجميع بخطوات لا يستطيع السيطرة عليها نتيجة ارتجاف قدمه، وبقيت النساء يمشين وراءه بخطى سريعة مبتعدات عن وسط الشارع الذي بدا طويلاً جداً. أوصدت أبوابها حتى الدكاكين التي تبقى مفتوحة ليلاً كي يجلس أمامها الرجال لقضاء سهراتهم يلعبون النرد. ولم يبق في الشارع سوى أعمدة الكهرباء المستسلمة للظلام والوحدة.

قطع السكون صوت طفل حديث الولادة انبعث من إحدى النوافذ، فتنفسّن

www.alkottob.com

الصعداء مرة أخرى. بكى الطفل قليلاً وهدأ. فغرق المكان من جديد في سكون مظلم.

أسرعوا الخطى. واجتازوا معظم الطريق.وبدأت المسافة تقصر واقتربوا من نقطة تقاطع الشارع مع زقاق آخر يليه، وبعد مسافة قصيرة كان ثمة انحناء أخير نحو اليمين يقبع بيتهم في بدايته.

لكنهم سمعوا نباح كلاب يأتي من بداية الزقاق.وقفت مريم وقالت:

. أنا خائفة كثيراً!..

فطمأنتها الأم: . لا تخافي وامشي، فالكلاب لا تمس إلا من يؤذيها أو يستفزها.

فقالت فاطمة:

. وإذا كانت مسعورة؟

تذمرت الأم:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أمشين فلم يبق إلى القليل ونصل إلى البيت، والكلاب لن تمسنا!

إلا أن مريم وفاطمة تجمدتا في مكانهما، ولم تحاول عائشة أو شماء إقناعهما بالمشي ووقفتا إلى جانبهما.

فنادت الأم الأب:

. يا أبا قاسم لا تسرع الخطى وتعال انتظر معنا فالفتيات يخفن الكلاب.

عاد الأب ليقف جميعهم بجانب الحائط منتظرين مرور الكلاب، التي كانت تركض مسرعة باتجاههم، وحين اقتربت اختفت مريم تماماً وراء أمها مغطية وجهها بالثوب الأسود ليزيد من حلكة الظلام فلا ترى شيئاً. مرت الكلاب سريعاً.

فقال الأب:

. لابد أنها كلبة تنقل جراءها إلى مكان آخر أكثر أمناً.

وقالت الأم:

. لننطلق بسرعة إذ أنها ستعود قريباً لتنقل البقية.

وانطلق جميعهم مهرولين إلى أن وصلوا الى البيت.

وسرعان ما اختبأ كل واحد في فراشه إلا مريم فقد قررت أن تختبئ بجانب

www.alkottob.com

أمها، وبقيت في تلك الليلة فترة طويلة تسمع عواء الكلاب يعلو ويتلاشى.

حين انتصف الليل، استيقظت مريم على صوت قريب، فدست رأسها تحت الغطاء، ولم يمنعها ذلك من سماع صوت أبيها راجياً أمها في طلب شيء ما.

استيقظت الأم فانكشف الغطاء عن وجه مريم، ورأت أباها واقفاً عند أقدامهن. أمسكت الأم بيد زوجها ودفعته نحو الباب، وهو لا يكف عن رجائها:

. أرجوك تعالي معي هذه الليلة فمنذ زمن بعيد لم نكن معاً.

ردت الأم بصوت منخفض وبنبرة حادة:

. عد إلى فراشك، ونم، فلن آتي معك.

. أرجوك!

. أخفض صوتك كي لا توقظ أحداً.

. لقد اشتقت إليك!

. ألاتخجل من نفسك أيها العجوز! وحد الله وعد إلى فراشك.

. لقد مر زمن طويل. أرجوك.

. اللعنة على هذه الليلة، قلت لك اذهب!

صوتها أيقظ عائشة فجلست في فراشها. وتوجه إليها الأب:

. أقنعيها كي تأتي معي يا عائشة!

وضعت عائشة يدها على خدها ونظرت إلى الاثنين بأسى. فقالت الأم موجهة كلامها إلى الأب: إنك فقدت الحياء كلياً، فاذهب قبل أن توقظ الآخرين.

بيد أنه أخذ يشد الأم من يدها فيما راحت هي تحاول الإفلات. فقامت عائشة من مكانها وأمسكت بالأب قائلة:

ـ أرجوك يا أبي، يكفينا النهار بمشاكله، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم واذهب.

لم يستجب لها الأب واستمر يشد الأم قائلاً:

. لن أذهب إلا إذا أتت معي.

فقالت عائشة راجية:

. أرجوك. دع ليلنا ينقضي على خير.

وأصرت الأم: . لن آتي. إقنع بذلك واذهب.

www.alkottob.com

. ستأتين بالقوة!

فشدته عائشة وقالت: . لا يجوز ذلك يا أبي. اذهب ولا ترغمها وإلا حدثت مشكلة..

واستطاعت عائشة أن تخرجه من الغرفة. كانت الأم قد حررت يدها منه وأغلقت الباب فوراً مبقية إياه وعائشة في الخارج. وقادته عائشة إلى فراشه وهو يتذمر تارة من هجرة الأم له ويتوعد ويهدد تارة أخرى.

عادت الأم إلى فراشها بجانب مريم التي تظاهرت بالنوم، وبقيت تتمتم بصوت منخفض إلى أن نامت.

في الصباح لم يعجل أحد بالنهوض فقد كان يوم جمعة.

وبقي كل في فراشه، مغطياً رأسه كي لا يقلقه طنين الذباب. الذي باشر نشاطه مع شروق الشمس، فراح يحوم حول الوجوه النائمة محدثاً طنيناً عالياً لا يكف عنه إلا بالهبوط والتوقف على تلك الوجوه.

لم تستطع الأم الاستمرار بالنوم فقامت لاعنة الذباب والحر. وتوجهت فوراً إلى خم الدجاج، فأزاحت الحجارة عن بابه لينطلق الدجاج متراكضاً في الساحة. ثم جلبت بعض الحبوب ونثرتها على الأرض، وسكبت قليلاً من الماء في وعاء حديدي قديم، فتجمع الدجاج حولها وراح يشرب. ثم مسحت الساحة بنظرة باحثة عن قطط فيها، ومن جديد تناولت حجراً ورمت به قطاً كان يمشي بمحاذاة السياج مبعداً مابين أقدامه الخلفية والأمامية ماطاً بطنه، فقفز في الهواء حين فاجأه الحجر ثم سقط متكوراً وقام متعثراً بنفسه وركض مبتعداً.

ثم توجهت الأم إلى المرحاض ورفعت ثوبها قبل أن تصله ومشت خطوتين لكنها أنزلته فجأة ونظرت بحركة سريعة وراءها وحولها.

وبعد أن قضت الأم حاجتها توجهت إلى غرفة الأب، أشعلت بابور الكاز ووضعت عليه إبريق الشاي، تناولت صينية ألومنيوم قديمة معوجة الأطراف وسكبت فيها من كيس تناولته من خزانة المؤونة بعض العدس وخرجت إلى الساحة وجلست مواجهة للشمس تنقي العدس وتراقب الدجاج. وبعد فترة قصيرة عادت إلى الغرفة، وكان الأب قد استيقظ وبقي في فراشه، توجّهت إلى بابور الكاز وكان الماء يغلي في الإبريق فصنعت شاياً، لكن كثرة الذباب في الغرفة جعلتها تؤجل شربه. سكبت قليلاً من الكيروسين في دلو، وبلت فيه خرقة قماش قديمة ثم راحت تمسح الأرض، فقرر قاسم الذي ينام عادة في غرفة أبيه، أن

www.alkottob.com

ينهض من فراشه، لأنه إن قاوم وقاحة الذباب، فلن يستطيع أن يقاوم رائحة الكيروسين النفاذة. وخرج.

استمرت الأم تمسح الأرض، وهي تقول للأب:

ـ لقد قدمت لك الكثير من قطع القماش لتبصق فيها. فلماذا تبصق على الأرض؟ ألا ترى إن الذباب سيهججنا من البيت؟

فأجابها الأب ببرود:

ـ الحق عليك، فقد اتسخت جميعها ولم تغسليها. ثم إنني لست الوحيد الذي يبصق في هذه الغرفة. فابنك قاسم يفعل ذلك أيضاً؟

ـ دع قاسم وشأنه، ولا تضع الحق عليه. فعادة البصاق هذه عندك قبل عودته من السفر.

نظر الأب إليها بعينين مستشرتين، وقال:

ـ اسمعي يا امرأة، لقد تعبت من تعاملك هذا معي، امسحي الأرض وأنت صامتة.

فقالت الأم ساخرة:

ـ وأي تعامل تريد؟

ـ هل نسيت أنني زوجك ويجب عليك أن تخدميني كما تخدم النساء أزواجهن؟

قالت الأم متنهدة:

ـ لو كنت رجلاً كباقي الرجال لما اعترضت. لكنك كالهم على القلب.

وكان ردها الأخير هو الشعرة التي قصمت ظهر البعير، فقال الأب بصوت عال وهو يقوم من الفراش:

ـ ومن أنا برأيك إذا لم أكن رجلاً؟

رمت الأم الخرقة من يدها وأسرعت نحو باب الغرفة، ثم توقفت ورفعت يديها إلى السماء متضرعة:

ـ يا إلهي. إذا كنت قد قدرت لي هذا المصير فامنحني الصبر على تحمله، فليس لي من وجهة...

وقبل أن تكمل دعاءها، كان الأب قد فاجأها من الخلف شاداً إياها إلى الداخل حتى أوقعها على الأرض، وهو يقول:

www.alkottob.com

. هيا اطلبي من الله أن يأخذني. وسأجعله يسمعك الآن، لكنه سيأخذك أنت وليس أنا.

وانهال عليها بالضرب راكلاً جسمها بقدميه شاداً شعرها الذي تعرى، انطلق صراخها العالي وهي تقاومه وترجوه أن يكف ويأتي أحد لنجدتها، في حين استمر الأب يزمجر ويضرب ويتطاير من فمه الزبد ليتساقط على وجهها.

أيقظ الصراخ عائشة ففزت من فراشها راكضة متوترة وهي تقول:

ـ يالتعاسة هذا الصباح! هاهما يتعاركان من جديد. ألم يستطيعا أن يؤجلا ذلك قليلاً كي لا يعكرا النهار منذ بدايته.

وهرع الجميع.

كان الأب وكأن جسمه اكتسب قوة فجائية قادرة أن تتصدى لمائة شخص، فبدا مثل فحل ثائر.

راحت عائشة تحاول فك شعر أمها من قبضة يده كائلة اللعنة لهما الاثنين.أما قاسم فحاول أن يمسك الأب من الخلف كي يسيطر على يديه الاثنتين. وتدخلت شماء وفاطمة ومريم كل منهن تحاول صد الضربات عن الأم، وطال كل واحدة نصيبها من اللكمات، وقد تحول غضب الأب ليشمل جميعهن فراح يضرب كل من أمامه وكل من يحاول إيقافه لاعناً إياهم جميعاً.

أفلتت الأم أخيراً من يديه فسحبتها شماء وفاطمة إلى الغرفة الأخرى وهي تبكي وتدعو الله أن يميته.

واستطاع قاسم أن يسيطر على الأب الثائر فطرحه أرضاً وجثم فوقه، في حين أسرعت عائشة بجلب حبل استعملوه من قبل لهذه الغاية وربطت قدميه بعناء، فقد كان الأب يقاوم بشدة، ثم ربط قاسم يديه، وحملوه ووضعوه في الفراش، وخرجوا متغاضين عن الشتائم التي كان يطلقها وراءهم:

ـ كلكم جميعاً ظالمون، ستحل اللعنة عليكم. إنكم أبناء تلك العاقة وكلكم تقفون إلى جانبها. سيسمعني الله ويلعنكم.

جلست الأم في الغرفة الأخرى وقد تمزق ثوبها تبكي وتسحب كتل شعر من رأسها انخلعت نتيجة الشد وتقول:

. لم يبق شيء في رأسي. لقد كان ينوي قتلي، إنه ليس بالعاقل ولن أستطيع العيش معه بعد الآن. إذا لم يقتلني اليوم فغداً سيفعل، وأنتم تصدقون إنه مريض وعاجز. إن به قوة ثور.

www.alkottob.com

فيما بقي الأب يصمت قليلاً ثم يعود للشتائم والتهديد، فقرر قاسم الخروج من البيت.

وبعد أن هدأت الأخوات من روع الأم راحت عائشة تؤنبها:

. ومع ذلك أنت المذنبة، لابد أنك قمت باستفزازه.

فثارت الأم:

ـ اسمعي يا عائشة. لا تضعي الحق علي فأنت تعرفين أباك جيداً وتدركين إن به مساً من الجنون.

ـ بل أعرف أنه زوجك قبل أن يكون أبي، وقد عشت معه عمراً أطول من عمري، وحان الوقت منذ زمن بعيد لأن تعرفيه وتتجنبيه فهو رغم ارتجاف يده وقدمه تسقط عليه القوة حين يثور، فلا تناقشيه ولا تبقي نفسك أمامه.

لم تجبها الأم واستمرت بالبكاء، وهي تتحسس جنبها وأطرافها وتمعن النظر في كتل الشعر المتساقط من رأسها.

مضت ساعتان. ساد شيء من الهدوء يشوبه بكاء الأم ونحيبها المتقطع.

أما الأب فقد تحولت نبرته إلى النقيض بالتدريج.

راح يبكي ويئن ويطالب برجاء ذليل أن يطلقوا سراحه. ثم يهدأ بكاؤه ورجاؤه وقتاً قصيراً، إلا أن أنينه يبقى مستمراً.

باشرت عائشة بعمل كان يجب على الأم أن تقوم به، فملأت وعاء صغيراً بالكيروسين، وأخذت مشطاً عظمياً مسنناً من الجهتين ولفت على أسنانه شريط قماش أبيض ثم جلست واستلقت مريم بجانبها واضعة رأسها على ركبتها، وراحت عائشة تغط المشط في الكيروسين ثم تقوم بتمشيط شعر مريم المجعد بشيء من العصبية قاصدة قتل مابه من قمل. كانت هذه العملية مؤلمة لمريم إذ كان المشط يخدش قشرة رأسها حين تركزه عائشة ثم تسحبه حتى نهاية الشعر. إلا أن مريم استلقت صامتة ولم تتأوه، كان يؤلمها أكثر نحيب أبيها وهو يرجو بذل أن يطلقوا سراحه، ثم يأخذ بأنين طويل يخترق روحها محدثاً فيها خدوشاً عميقة تؤلمها وإلى زمن طويل قادم..!..

سمعت عائشة باب الباحة الخارجي يفتح. فوضعت المشط جانباً وأزاحت مريم عنها ونهضت لتواجه قاسماً:

ـ مليح أنك لم تتأخر، فقد قطع قلبي بكاء أبي، لكني خفت أن أفك رباطه

www.alkottob.com

وحدي فقررت انتظارك.

لم يعلق قاسم على كلامها وتوجها نحو الأب، وحين رآهما قال بصوت باك:

ـ أرجوك يا عائشة! إن يدي تؤلمانني. فك رباطي يا قاسم ولا تكونوا بهذه القسوة.

فكا رباطه بحذر خوفاً من أن يثور انتقاماً. لكنه حين تحرر راح يحرك جسمه بضعف معدلاً من وضعه في الفراش ثم يتأوه من الألم. جلس قاسم إلى جانبه قليلاً ثم هتف ببرود:

. إنك تجني على نفسك بنفسك، فلا تفعل ذلك مرةأخرى.

لم يجبه الأب واستمر بتأوهاته. فسقته عائشة ماء وهي تسند رأسه بيديها، ثم عدلت غطاءه، وباشرت بإعداد طعام له فخرج قاسم وبقيت هي تساعده على الأكل، بعد ذلك أخذت تمسح أرض الغرفة بالكيروسين فقد غطاها الذباب من جديد.

في ذلك اليوم وجدت شماء حلاً لمشكلة البصاق اعتبره جميعهم حلاً عملياً، فملأت تنكة حديدية بالتراب ووضعتها بجانب فراش أبيها كي يبصق فيها كلما أراد.

وكلفت فاطمة مريم بتغيير التراب كلما تطلب الأمر.

بقيت تلك التنكة بجوار فراش الأب إلى أن مات!

بعد فترة من الزمن وجد قاسم الشخص الذي وافق على شراء جزء من الأرض، لكنه اشترط شراء خمسة دونمات وليس ثلاثة كما تقرر. لم يكن هناك من خيار آخر فوافقت الأسرة. ولأن المبلغ الذي سيستلمونه يزيد عن حاجة قاسم لشراء الخشب وأدوات البناء، اقترحت عائشة أن يذهب معهم العم إبراهيم كي يستلم ثمن الأرض، حيث يعطي قاسماً مايحتاج ويبقي الجزء الآخر عنده أمانة.

تساءلت الأم: . ولماذا؟

أجابت عائشة:

. في الحقيقة أنا أخاف أن تبقى النقود في البيت بمتناول يد قاسم.

فردت الأم:

. ومن قال أنها ستكون بمتناول يده، سأجد لها مخبأ لن تطاله الجن!..

ـ لكن قاسماً سيطاله، دون أن يتعب نفسه بالبحث. يكفيه أن يتمسكن قليلاً

www.alkottob.com

أمامك لتمنحيه كل ما بحوزتك!..

هزت الأم رأسها ولم تجب شيئاً.

تقرر ذلك بعد موافقة العم إبراهيم، إلا أنه طلب أن يخفوا الأمر عن قاسم تفادياً لحصول مشاكل قد تعيق عملية البيع، حيث سيشرح له الأمر بنفسه فيما بعد.

استيقظوا مبكرين في ذلك اليوم. وبعد أن ذهبت الأخوات إلى المدرسة، بدأت عائشة تحضر ملابس نظيفة لأبيها، في حين راح قاسم يساعده على حلق ذقنه. فيما ظل هو يحدق صامتاً في نقطة أمامه، ثم هتف فجأة وبلهجة ممتعضة:

. تتفقون على بيع الأرض، وتبيعونها، وتستلمون ثمنها، وليس لي في الطابق كله من مكان سوى البصم!

فتساءلت عائشة باستطراف:

. وما الذي تريده؟

. إنها أرضي ويجب أن أستلم ثمنها بنفسي!

ابتسم قاسم ابتسامة عريضة لم تشِ بمدى استطرافه للأمر وحسب، بل وتشي بفيض من سعادة خفية تغمره:

. وماذا ستفعل بالنقود؟

. سأنفقها على الأسرة وعلى نفسي!

ولم يتطلب الأمر وقتاً كبيراً من عائشة وقاسم كي يقنعا أباهما بالعدول عن ذلك لأن هدف البيع ليس إنفاق النقود من أجل المعيشة وإنما من أجل عمل قاسم. اضطر الأب للموافقة على مضض. لكنه اشترط:

. إذاً اشتروا لي على الأقل من ثمنها كيلوين من اللحم!

وما إن أنهى جملته حتى راح قاسم وعائشة يقهقهان. بيد أن عائشة سرعان ماسيطرت على ضحكها ووعدته قائلة:

. هذه ليست بالمشكلة. سنطبخ اليوم منسفاً.

فرد الأب:

. لا، ستأكلون أنتم اللحم وتبقون لي الرز. اطبخيه لي وحدي!...

طمأنته عائشة وهي تضحك بأنه سينال القدر الأكبر من اللحم، فراح الأب يبلع ريقه، وهو يؤكد على حقه في اللحم كله!..

www.alkottob.com

جهز قاسم نفسه وهو يمازح الأسرة وانطلق مع أبيه.

بقيت الأم وعائشة في البيت بانتظارهما. لكن فرح قاسم سرعان ما تلاشى حين فوجئ بوجود العم إبراهيم في دائرة الأراضي ينتظرهما. ألقى عليه السلام وتبادلا أطراف الحديث والشك يراوده بسبب وجود العم. وبعد أن تمت عملية البيع صعق قاسم حين رأى عمه يستلم ثمن الأرض. لكن الخجل منعه من أن يطالب عمه بالنقود، كون الأخير ذا هيبة كبيرة.

ولم يقو على إخفاء غضبه فخرج غير آبه لعمه الذي حاول تهدئته وشرح الأمر له. وعاد إلى البيت وهو لا يقوى على احتمال الطريق التي لا تنتهي، كان يلهث، وكان الهواء الذي يخرج من رئتيه ساخناً، وكان الغضب في داخله يزداد ويحتقن بشكل لا يطاق، فإذا لم ينفثه فوراً، انفجر في داخله كقنبلة موقوتة.

حين لاحظت عائشة ثورته هربت إلى الغرفة الأخرى مغلقة الباب وراءها بعصا خشبية، وأسندت ظهرها إليه بقوة كي تحكم من إغلاقه، فلا يستطيع قاسم فتحه وكانت تسمع دقات قلبها بقوة.

لكنه لم يلحق بها وبقي يوجه الكلام والأسئلة بصوت عال ومنفعل لأمه:

. تردن رجلاً في البيت وأنتن تحكن المكائد من وراء ظهره!؟ لماذا؟ أفهموني لماذا؟ . ولم ينتظر الجواب . كي تدعين في النهاية أنني شخص فاشل. أعرف، إنها الماكرة عائشة هي التي قررت ذلك، منذ متى والعم إبراهيم وصي على أموالنا؟ إن له من الأراضي مايكفيه كي يكون وصياً عليها. وفي هذا البيت أنا الرجل. أنا الوحيد الذي يملك حق التصرف بأموال أبي ولن أسمح له ولا لتلك الماكرة بأن ينحياني جانباً.

واستمر يهدد ويتوعد، والأم تحاول جاهدة أن تجد فرصة للكلام لكن صراخه كان يعلو، فقاطعته أخيراً:

. اهدأ يا بني ولاتثر هكذا وكأن مصيبةقد حدثت.

فزادت ثورته:

ـ بالنسبة لي مصيبة، إن مجرد العيش معكن مصيبة فلا أدري أي خطة تحاك ضدي في هذه اللحظة.

. لا تقل ذلك فأنا أمك، والفتيات أخواتك وكلنا نبغي مصلحتك، ثم إن النقود لم تضع، فعمك رجل شهم أمين،ولا فرق إن كانت النقود في بيته أم في بيتنا.

. ولذلك أنا أتساءل: لماذا في بيته إذا كان لا فرق؟!

www.alkottob.com

إلا أن الأم منعته من إكمال حديثه بإشارات تطالبه بالصمت منبهة إياه إلى العم الواقف في الباب. قال العم:

. لقد طرقت الباب الخارجي لكنكم على مايبدو لم تسمعوني.

ردت الأم مرتبكة:

. البيت بيتك يا أبا إسماعيل، ولا حاجة إلى طرقه، تفضل بالجلوس.

رحب به قاسم ببرود محاولاً إخفاء غضبه وتوتره.

أما الأم فاتجهت إلى الغرفة الأخرى لتطمئن عائشة.

وبعد أن جلس العم بدأ يحدث قاسماً بنبرة هادئة:

ـ اسمع يا قاسم. لن أعاتبك على تعاملك معي في دائرة الأراضي حين تركتني أمام الناس وأنا أتحدث إليك وذهبت، وبرغم أن ذلك ليس بسلوك رجال فأنا أقدر أنك كنت منفعلاً لا تدرك معنى تصرفاتك. وها أنا لحقت بك لأثبت أنني لم أغضب منك وكي أفهم سبب انزعاجك.

أراد قاسم أن يتكلم لكن العم استطرد مانعاً إياه بعد أن أخرج النقود من جيبه:

. هذه هي النقود كلها. خذها وعدها أولاً إذا كنت تشك بي.

فقال قاسم: . معاذ الله!

ـ وما المشكلة إذن؟ أتعتقد أنني سعيد بإبقائها بحوزتي؟ إن الأمانة ياقاسم هم! وقد وافقت على هذا الهم من أجلكم لأنني أدرك أن بقاء النقود في بيتكم سيجعلكم تتفقونها دون أن تعوا، فإن لم تنفقها أنت قامت أمك بذلك، أو أبوك، حتى أخواتك. فتلك تحتاج إلى كذا وكذا، والأخرى تحتاج إلى أشياء أخرى. وستكتشفون بين يوم وليلة أن ثمن الأرض قد طار. وصمت قليلاً ثم استطرد:

. لكنني على مايبدو كنت مخطئاً في تقدير الأمور، لذلك خذ النقود يا قاسم ووفر على نفسك الغضب والتوتر. وأرحني من هذا الهم.

شعر قاسم بأن كلام عمه يحاصره من كل الجهات، فلا يستطيع أن يجد أي مخرج يحافظ به على النقود وبنفس الوقت يبقي عمه راضياً بعد أن شكك بأمانته.

لم يبق أمامه سوى أن يرفض النقود، موضحاً أنه لم يكن يقصد الإساءة إليه شخصياً، وإن ما أزعجه في الموضوع هو تستّر الأم والأخوات وخاصة عائشة، وعدم إعلامه بذلك في حينه، وبالتالي فقد كان هو آخر من يعلم بما يجري ويقرر

www.alkottob.com

في هذا البيت، وهذا تجاوز صارخ له.

وبشكل دبلوماسي وافق العم على ذلك، وقدم شيئاً شبيهاً بالاعتذار عن لسان الأم وعائشة.

كان قاسم في أثناء ذلك يحدق إلى نقطة أمامه ويفكر، فقد خرج الموقف كله من يده ولا مجال أمامه إلا أن ينصاع ويرضى بما تقرر. وكان ذلك يستفزه أكثر ويجعل النار تشتعل في أحشائه، فحاول أن يغير من مجرى الأمور وقال بعد أن أنهى العم كلامه:

. الأمر الآخر الذي أزعجني . وتردد. أعني، عندما اشترط ذلك المشتري شراء خمسة دونمات، فقد فكرت أنها فرصة كي أشتري كل ما أحتاج من أدوات عمل وخشب وأقوم باستدعاء العمال، كي تكون بدايتي قوية فيطلبني للعمل كل من ينوي البناء حتى وإن أراد بناء قصر.

استمع العم إلى قاسم بعبوس وظل صامتاً فترة قصيرة ثم رد وهو يرمق قاسم بنظرة ساخرة: . في هذه القرية يا قاسم لا أحد يبني القصور...! والبداية القوية لا تكون بمقدار ماتملك من خشب وعمال، بل بسمعتك الطيبة وبقدرتك على أداء العمل الجيد.

فتوكل على الله، وخذ نصف المبلغ واشتر ماتحتاج فقدحان الوقت للعمل، ولا داعي لأن تضيعه في المشاكل والمشاجرات مع أخواتك.

كانت الأم قد دخلت أثناء ذلك وراحت تسكب الشاي وهي تستمع إلى حديث العم، وفي نفسها شعور كبير بالراحة والامتنان لقدومه في اللحظة المناسبة، لكن العم رفض أن يشرب الشاي ولم يضعف أمام إصرار زوجة أخيه على البقاء معهم لتناول طعام الغداء، وعاجل بالخروج بعد أنهى كلامه مع قاسم.

في الأيام التالية لم تتح عائشة ولا أي شخص آخر في البيت لقاسم أن يفجر العاصفة التي كانت تعوي في داخله. فقد حافظوا جميعاً على تجنبه تماماً.

وسرعان ما اشترى قاسم الخشب وأدوات البناء، وشغل معه أحد العمال، ثم اختار نقطة بعيدة عن الغرفتين الطينيتين في ساحة الدار وبدأ الحفر فيها.

فهمت عائشة سبب غضبه الشديد عندما بقي المبلغ مع العم إبراهيم. فبعد حوالي شهر كان قاسم قد أنهى بناء غرفة ومطبخ، وأفصح فوراً عن رغبته في الزواج.

ارتبكت الأم برغم أنها توقعت ذلك، بل إنها جهزت الكثير من الردود التي

www.alkottob.com

تعجز الآن عن سردها، وحاولت بارتباك واضح أن تشرح له أنها ستكون سعيدة حين تراه عريساً لكن الزواج لا يقتصر على يوم العرس، فهو مسؤولية ويجب على من يقدم عليه أن يكون أولاً قد أسس نفسه بالعمل. فأجابها:

. ومن قال أنني لا أعمل؟

. لكنك يا بني لغاية الآن لم تستلم أي عمل خارجي، فمنذ أن اشتريت أدوات البناء باشرت فوراً ببناء غرفة لنفسك، وإذا كنت تعتمد على ماتبقى من ثمن الأرض فذلك لن يكون حلاً . يجب عليك يا بني أن تبدأ من خلال عملك بجني النقود، ثم فكر في الزواج، ولن يصدك أحد.

لكن قاسماً أصر على موقفه مدعياً بأنه حين سيتزوج ويستقر مع زوجته سيبدأ حياة جديدة.

اضطر جميعهم للموافقة، فقد كانوا يدركون أنهم لن يستطيعوا صده.

وسرعان ماوجد عروساً. وكان لها أخ تعجل بالإعلان عن رغبته في الزواج من عائشة، التي لم تتردد كثيراً لعلها بذلك تضع حداً لنمط حياتها تلك.

وهكذا تزوج قاسم وعائشة في يوم واحد، ففي اليوم الذي خرجت فيه عائشة من البيت دخلته أخرى. ارتدت عائشةثوبها الأبيض، ووضعت تاجاً علىرأسها، وزينت وجهها. فبدت جميلة، صافية، نقية، إلا من تلك الدموع التي حبستها في عينيها فغاب منها البريق وتلاشى وراء موج يتذبذب في مكانه.

ودّعوها وبقي الحزن يكبل نفوس أمها وأخواتها مانعاً إياهن من الفرح بزواج قاسم وباستقبال عروسه وباعثاً في أغانيهن البهيجة شجى حزيناً.

كانت عروس قاسم ذات عينين واسعتين أميل إلى الجحوظ، أما أنفها الطويل فكان ينتهي بفك متقدم إلى الأمام، وبدت لمريم أشبه بتلك الساحرة التي طير الريح شعرها في الحكايات.

وانتهى العرس، انتهى الفرح/ الحزن.

مضت الأيام وبدؤوا جميعاً يتعايشون مع الحياة بعد أن أعيد ترتيبها.

- 10 -

بعد زواج قاسم وعائشة ازداد تقشف أسرة الأم، فقد قطع الدخل الذي كانت

www.alkottob.com

تجنيه عائشة من الخياطة، ولم يبق لهم سوى العيش على القليل الذي يدره تضمين باقي الأرض، وعقد الأمل من جديد على قاسم. وعزز بذلك من موقع زوجته التي بدأت تتعامل بثقة الحاصل على السلطة الوحيدة في البيت.

كان زوج عائشة يعمل موظفاً في شركة نقل بري للبضائع، وكان طيب بالقلب على قدر من السذاجة، وعلى قابلية عالية للتأثر بآراء الآخرين، تحركه في الحياة انفعالات حادة وآنية، فكان وبلحظة انفعال مستعداً لأن يتخذ قراراً مهماً في حياته دون أن يتمحصه أو يفكر فيه، ثم يعود للعدول عنه في اللحظة التالية إذا سمع رأياً مخالفاً، وقد سبب ذلك الكثير من المشاكل بينه وبين عائشة في بداية حياتهما. فقد طردها مرة من البيت وضربها وهددها بالطلاق بعد مضي عدة أشهر على زواجهما، لأنها لم تقل البندورة بالطريقة التي تعجبه! وجاء في اليوم التالي متوسلاً إليها أن تعود.

وحدث ذلك مرة أخرى بعد أن وضعت طفلتها الأولى بشهر لأن أخته قد أنجبت ولداً، فقرر أنها لن تقدر هي إلا على إنجاب البنات كأمها، لكنه في تلك المرة لم يحضر لاسترجاعها إلا بعد مضي شهر. أدركت عائشة في تلك المدة التي قضتها مضطرة في بيت أهلها من جديد أن لا خيار أمامها سوى العودة لبيت زوجها، فكانت تمضي أيامها بانتظاره، فعليها وحدها . وفقط وحدها مادام ليس لها من أب ولا أخ تعتمد عليه . أن ترتب حياتها التي لا بديل عنها بطريقة تمسك بها زمام الأمور، وتكون هي المحرك لزوجها البسيط، وبالفعل فقد استطاعت عائشة فيما بعد بحكمتها أن تتعايش معه، بل وأصبحت الموجه له في حياته وعمله، تغض النظر عن انفعالاته وتبدي الكثير من الصبر في تحمل سلوكه ومزاجه.

في أثناء ذلك كان قاسم قد حصل على الكثير من عروض العمل، وبنى مجموعة من البيوت في القرية، إلا أن هذا لم يؤثر بشكل ملحوظ على وضع أهله، فمنذ البداية اختار لنفسه عملاً من الجالية المصرية، إذ كان يسعده كثيراً أن ينادوه (يابيه، يا معلم)، ويكبر بعيونهم أكثر فيزيدون من تبجيله حين يسخى عليهم بالأجر.

وكان في العادة يختفي من البيت حين يتقاضى أجر البناء، فلا يعود إليه إلا بعد أن تكون المشاكل قد اشتعلت بين الأم وزوجته التي تندب حظها الذي قادها إلى هذه الأسرة البائسة بعكس حظ ابنتهم عائشة.

وحينما يعود قاسم في الصباح سرعان ما تهدأ زوجته وترضى، وتفوح في

www.alkottob.com

ذلك اليوم والأيام التالية من مطبخه، روائح اللحوم والدجاج فتستفز معدة وأعصاب الأب ليروح بدوره يبحث عن مبرر أو شخص يفرغ به شحناته العصبية الزائدة، وتفرح لذلك زوجة قاسم، حيث تسنح لها الفرصة لمراقبة عراك في الغرفتين الطينيتين ليكون موضوع حديث مشوق وطريف مع الجارات ترويه لهن من وراء السياج المنخفض، ويسمع حينذاك صوت ضحكهن العالي وهي تصف الحدث.

وتمر عدة أيام والأم تنتظر ابنها كي يقدم لها ما تجود به نفسه من النقود. ويأتي قاسم يشكو لأمه صعوبة الحياة التي علقت على رقبته أسرتهم وأسرته التي أصبح عدد أفرادها أربعة بعد إنجاب زوجته لطفليه وما من أب أو أخ يساعده على إعانتها.

وترضى الأم بالقليل وتدعو له بالتوفيق. ويكون القليل ذاك سبب مشاكل أخرى مع زوجته التي تعتبر أن الأم والأخوات هن العقبة في طريق تطور وتحسن أوضاع زوجها. وقد جن جنونها في أحد الأيام حين سمعت بخبر شراء أخيها لقطعة أرض ونيته بناء بيت مستقل عن أهله.

ومنعت زوجها من أن يعطي أمه أي قرش ثم انطلقت إلى بيت أهلها مع طفليها. وكانت عائشة قد أنجبت طفلها الثاني وكان ذكراً، فرحت أمها به واعتبرته مسماراً ثبت قدم عائشة في بيت زوجها، لكنهم استقبلوها في ذلك اليوم مع طفليها بعد أن ضربها زوجها وطردها انتقاماً لأخته التي تعيش حياة ذليلة، وتحملت عائشة أسبوعاً جديداً من الحياة في بيت أهلها وهي تنتظر زوجها إلى أن قام بإرجاعها.

ومر عامان باهتان من حياة تلك العائلة، لا فرح نقي ولا حزن عميق..

- 11 -

في الصيف أنهت شماء المدرسة، وفي اليوم الذي أعلنت فيه النتائج انتشر خبر حصولها على أعلى معدل في المنطقة، وكانت بذلك أول فرد في الأسرة ينهي تحصيله المدرسي.

حضرت عائشة مع طفليها وقبل أن تدخل وقفت بباب الباحة الخارجي وراحت تزغرد، ثم دخلت وقالت بانفعال شديد:

ـ لم أصدق الخبر حين سمعته، ودِدْتُ لو أركض لكني كنت أشعر بقدمي

www.alkottob.com

مثبتتين في مكانهما، وكدت أتعثر بثوبي عدة مرات وأقع.

أجابتها شماء:

. ولماذا، ألست أهلاً لهذا المعدل !..

فقبلتها عائشة وهي تبكي وقالت:

. إنك عظيمة، هذا ما أردته منك فلم تخيبي أملي!

ثم توجهت إلى الأم:

ـ هاهي ابنتك قد رفعت رأسك، فلم يحصل أحد في المنطقة على المعدل الذي حصلت عليه.

فردت الأم:

. الحمد لله، ليوفقها الله وليبعث لها الشاب الجدير بها.

فقاطعتها عائشة:

ـ عم تتحدثين؟ أي شاب هذا؟ بل ادعي لها أن تحصل على منحة في الجامعة.

فوجئت الأم بخبر الجامعة، فلم يخطر ببالها ذلك من قبل، وكل مافكرت فيه أن ابنتها قد حصلت على نقاط ترفع من شأنها في القرية فيتقدم لها أصحاب الحسب والنسب غاضين النظر عن وضع أهلها.

وسرعان ما بدأ المهنئون بالتوافد، فانشغلت فاطمة ومريم بتحضير فناجين القهوة المختلفة بالشكل والحجم، إذ لم يكن في البيت سوى ثلاثة فناجين متشابهة مع صحونها، وقررت فاطمة أن يقدمنها إلى الضيوف الأكثر أهمية، أما العصير فلم يكن لديهن أبداً أية كاسات زجاجية مناسبة لتقديمه، ووافقت مريم بعد تردد أن تتجاوز خجلها وتضحي من أجل هذه المناسبة العظيمة فذهبت إلى الجيران قاصدة استعارة الكاسات من عندهم.

كان أول المهنئين العم إبراهيم وزوجته.

هنأ شماء بحرارة مفصحاً عن فخره الشديد بها، فاحمرت وجنتاها وهي تسمع المديح الكثير وشعرت بأنها قامت بعمل بطولي لا تدرك مدى أهميته.

عاد قاسم إلى البيت بعد أن كان قد هنأ شماء في الصباح وخرج، فقامت الأم ونادته حين رأته متوجهاً إلى بيته:

. عمك إبراهيم جاء مهنئاً، فتعال واجلس معه.

www.alkottob.com

استجاب قاسم وغير وجهته ودخل الغرفة، وبعد أن سلم على الجميع جلس إلى جانب العم الذي قال:

ـ لا تتذمر بعد الآن ياقاسم من كونك بلا أخ، فقد رزقك الله بأخوات على قدر من الذكاء والحكمة ينقص الكثير من الرجال، وسيكن بعون الله خيراً لك من ألف أخ.

لم يعجب قاسم بالكلام وهيئ له بأن العم يعرض به بطريقة أو بأخرى فلم يعلق واكتفى بهز رأسه، فقال العم:

. مابك يارجل، ألست سعيداً بتفوق أختك؟!

. لم يستطع قاسم أن يخفي استفزازه وردَّ بشيء من العصبية:

ـ بالطبع سعيد، وماذا علي أن أفعل كي أثبت ذلك، هل أرقص كالأطفال مثلاً.

تعمدت الأم الضحك كي تحد من تصاعد الحوار فقد بدا الاستفزاز واضحاً على قاسم، وقالت مداعبة:

. ولم لا، هيا قم وادع زوجتك وأطفالك ولنرقص جميعاً!..

ضحكوا جميعاً، إلا قاسماً، فقد شعر بالاستخفاف بكل مايجري، وبعد أن شرب القهوة قام واعتذر من عمه مدعياً ضرورة العودة إلى العمل، فقال العم:

. لا يضر إذا تغيبت عن عملك يوماً واحداً، فنجاح أختك يستحق ذلك.

لكن قاسماً لم يتمالك نفسه ورد بنبرة حادة وهو خارج:

. لا أعتقد أن نجاحها سيطعمنا خبزاً.

ساد شيء من الصمت، إلا أن وفود المهنئين سرعان ما بعثت الفرح من جديد وأنستهم قاسماً.

استمرت الحركة تعج في البيت عدة أيام، وكانت عائشة قد تبرعت سراً بمبلغ من المال كي تشتري الأم ما يحتاجونه من أدوات منزلية وأنواع حلوى فاخرة للضيافة تليق بالحدث.

بعد مضي شهر حصلت شماء على منحة في جامعة العاصمة، وكان ذلك أيضاً حدثاً كبيراً في العائلة، فقد كانت أول فتاة في القرية تحصل على منحة جامعية. مماجعل أهلها يزدادون فخراً واعتزازاً متجاوزين واقعهم البائس الذي يحني رؤوسهم باستمرار.

www.alkottob.com

لكن الأم وبرغم فرحها ترددت قليلاً بشأن سفر ابنتها إلى العاصمة. وارتأت أن يكون قاسم هو من يبت في الأمر كونه الرجل الوحيد في البيت.

أيدت عائشة هذا الموقف باعتبار سفر شماء إلى العاصمة وإن كان لأمر مهم كالدراسة، فيجب أن يتم بموافقة الأخ، رضخت شماء لهذا القرار برغم إحساسها بالظلم، فمستقبلها بات يتوقف على كلمة يقولها قاسم.

انتظرت الأم عودة قاسم من العمل فاستدعته إلى غرفتهم، وحدثته في البداية عن أمور أخرى، ثم بدأت الحديث بالموضوع المهم.

. أنت تعرف أن شماء حصلت على منحة للدراسة الجامعية في العاصمة.

. نعم أعرف.

. يقولون إن الطالب الذي يحصل على منحة يتقاضى مرتباً شهرياً بالإضافة إلى دراسته على حساب الحكومة.

نظر إليها قاسم وقال:

. هذا جيد.

. هل يعني ذلك أنك موافق على سفرها؟

. ولماذا لا أوافق؟

. كما تعرف يا بني كونها فتاة يجعل مسألة سفرها إلى العاصمة وحيدة ليست بالبسيطة، وربما تطلق ألسنة الناس علينا. وقد خفت أن تمانع أنت ضد سفرها وترتئي أن بقاءها هنا سيكون أفضل، لكنك والحمد لله عاقل كما توقعت ولن تقف في طريق مستقبلها.

في الحقيقة، لم يكن ذلك الأمر يهم قاسماً كثيراً، فلتسافر إلى حيث تشاء. بل إنه كان سعيداً لأن عدد الأخوات في تلك الغرفة سينقص، وكان كل ما أثار فضوله في حديث أمه شيئاً وحيداً فسأل: . وماهو الراتب الذي ستتقاضاه؟

. لا أعرف يا بني، لكنها كما فهمت، ستتقاضى مرتباً يساعدها على العيش هناك دون الحاجة إلينا.

صمت قليلاً، فعادت الأم لتتيقّن من موقف ابنها:

. إذن أنت موافق على سفرها؟

. نعم موافق.

تنفست الأم الصعداء، فشكرت الله على ذلك، وأردفت:

www.alkottob.com

. المسألة الأخرى يا بني هي أنها يجب أن تسافر في الأيام القادمة إلى العاصمة كي تقدم طلب الانتساب للجامعة.

فقاطعها قاسم الذي بدأ يشعر بأن أمه تحمله هماً هو في حل منه:

. قلت إنني لا أمانع، أم أنك ترينني أغلق باب الدار بقفل حديدي؟

ردت الأم:

. ماقصدته يا بني شيء آخر، فهي لم تغادر حدود القرية من قبل، أول مرة ستكون صعبة عليها، ألا ترى أنه من الأفضل أن ترافقها، فهي لا تعرف العاصمة وقد تضيع فيها، وأنت شاب سافرت من قبل كثيراً وتعرف المدن، وفوق ذلك أنت أخوها ولابد من الوقوف لجانبها ومساعدتها.

فكر قاسم قليلاً وشعر بالندم لموافقته على سفرها، فهو لم يفكر حينها بما سينجم عن ذلك من تعب ومصاريف، قال:

. لكنني الآن لا أملك شيئاً من النقود، لقد دفعت بالأمس كل مامعي أجراً للعمال.

فردت الأم:

. لقد تبرعت عائشة بمصاريف الطريق، على أن لا تعلم زوجتك بذلك، وإلا نقلت صورة مشوهة لأخيها تثير نقمته على عائشة.

. حسناً إذن، ومتى يجب أن نسافر؟

. من الأفضل أن لا نؤجل ذلك كثيراً.

. بعد غد إذن.

انتهى الموقف دون ضجة أو مشاكل وسافرت شماء وقاسم بعد يومين إلى العاصمة. سلمت الأم في الصباح مصاريف الطريق لقاسم وانطلقا، وحين وصلا باشرت شماء بالأسئلة عن أماكن تقديم الطلبات، وقامت بنفسها بجميع الإجراءات، لكنها عندما علمت ببعض الشروط اكفهرت، ولم تخبر قاسماً بها وقررت أن تتكتم على الأمر لتناقشه أو لا مع عائشة والأم، ولم يعودا بعد ذلك فوراً فقد انشغل قاسم بشراء حلويات من العاصمة كهدية لعائلته ثم توجها لمحطة الباصات، ركبا باصاً وعادا إلى القرية،

ولم يلاحظ قاسم خلال الطريق صمت شماء وحزنها وراح ينفخ دخان السجائر الفاخرة التي خص نفسه بها في هذا اليوم، وصلا البيت وافترقا عند باب

www.alkottob.com

الباحة الخارجي حيث توجه كل إلى غرفته.

لاحظت الأم فوراً الكآبة على وجه شماء فسألتها:

. مابك، هل تشاجرت مع قاسم في الطريق؟

. لا، أبداً.

. ما الذي حصل إذن، ألم يقبلوك في الجامعة؟

. لا ، يا أمي، فالقبول ليس فورياً.

. خبريني إذن مابك متجهمة هكذا؟!

. علمت هناك بأنه يجب على كل المتقدمين للجامعة، بعد حصولهم على القبول أن يدفعوا قسط الدراسة الأول، وأن تدفع الفتاة التي ترغب بالعيش في السكن قسطاً مبدئياً مقابل ذلك، كل هذه الأقساط مستردة لمن حصل على منحة.

قالت الأم:

. لم أفهم شيئاً، لماذا يجب الدفع إذا كانوا سيردون المبلغ فيما بعد؟

. لا أعرف، هكذا هي القوانين، فالمنحة كما فهمت ستقرر بعد شهر أو شهرين من الدراسة.

فسألت الأم بتخوف:

. وكم هو المبلغ؟

. لا أعرف بالضبط، لكنه في حدود مائة دينار.

شهقت الأم:

. مائة دينار! من أين لنا بها؟

فردت شماء وفي عينيها رجاء بائس:

. أليس من أحد نستدين منه؟ فالمبلغ مسترد.

وضعت الأم يدها على خدها وقالت بأسى:

. ومن أين سنستدين؟ لقد أرقت ماء وجهي مرات كثيرة أمام الجارات من أجل مبالغ بسيطة، وكن أحياناً يرفضن، فكيف سأطلب الآن مبلغاً كهذا؟ لا أعتقد إن أحداً سيوافق.

. وعمي إبراهيم؟

. حتى عمك إبراهيم أخجل منه. ولا أعتقد أن المبلغ أصلاً بحوزته، فمرتبه

www.alkottob.com

الشهري كله، لا يساوي مائة دينار!

لم تتمالك شماء نفسها فراحت تبكي، وهي تشعر بعبث الجهد الذي بذلته من أجل الحصول على معدل يؤهلها للحصول على منحة. إن واقعاً مراً ينتصب أمامها كالجدار السميك تتحطم عليه طموحاتها، في حين لا تستطيع فعل شيء حياله سوى البكاء بحرقة ولعنه بحقد، مدركة في أعماقها أن الدموع واللعنات ماهي إلا سلاح وهمي يلجأ إليه الضعيف في أقصى حالات عجزه.

دخلت عائشة، فأرعبها المنظر، كانت الأم صامتة تضع يدها على خدها وشماء تبكي وفاطمة ومريم تجلسان بجانبها ولا تحرك أي واحدة منهن ساكناً لتهدئتها.

فقالت بقلق:

. كفانا الله الشر، أي مصيبة قد حلت؟

وقفت الأم لاستقبالها وقالت:

-لا تخافي واجلسي أولاً وسنحدثك.

. حدثيني أولاً ما الذي حدث لها في العاصمة، هل تشاجرت هناك مع قاسم؟

. ليته حدث.

فارتعبت عائشة أكثر وقالت:

. ماذا إذن ؟ لقد خارت قواي فأخبريني.

أجلستها الأم وحدثتها بالأمر، في حين استمرت شماء بالبكاء، فتوجهت إليها عائشة:

. اهدئي وكفي عن البكاء، لابد من إيجاد حل.

أحست شماء بأن عائشة بحكمتها ستنقذ مستقبلها، ولاح الأمل في الأفق من جديد فسألت:

. وكيف سيوجد ذلك الحل؟

راحت عائشة تحدق إليها فترة دون أن تنطق بكلمة، فقالت شماء بخيبة:

. كان من الأفضل لو لم أتعب نفسي بالسهر والدراسة، لو كنتِ رسبت وجلست الآن بانتظار العريس، فماذا يعني أن أحصل على معدل عال مادمت فقيرة، كان يجب علي أن أفهم هذه الحقيقة منذ البداية وأوفر على نفسي الجهد.

كانت عائشة مستمرة بالتحديق إليها دون أن تستمع إلى ما تقول، ثم هتفت:

www.alkottob.com

. كما من حق قاسم أن تباع الأرض من أجله، من حقك أنت أيضاً ذلك ودراستك الجامعية أمر لا يقل أهمية عن سفره وعمله، مائة دينار ثمن لدونمين من الأرض.

انتفضت الأم في مكانها حين سمعت ذلك، فقد تعودت أن تسمع الرأي الحكيم من عائشة في مآزق كثيرة كهذه، إلا أنها في هذه المرة خيبت أملها، بل إن ماقالته ضرب من التخريف، فعندما كانوا يبيعون الأرض في السابق، إنما كانوا يفعلون ذلك من أجل قاسم الذكر الوحيد في الأسرة، وبالرغم من أنه مقصر في حقهم ولديهم الكثير من الملاحظات عليه وعلى سلوكه، فإنه في النهاية يبقى شاباً يحيي اسم أبيه وبيته، ويعشن هن في ظله، أما أن تباع الأرض من أجل فتاة وإن كانت أيضاً ابنتها فهي في النهاية فتاة وإن تعلمت لابد لها في يوم من الأيام أن تنتقل إلى بيت زوجها لتكون ملكه، وقالت:

. في هذه المرة لست محقة يا عائشة، فقاسم رجل وهاهو فاتح بيت أبيه، وأنت بالذات لست بحاجة إلى أن اشرح لك الأمور.

فقاطعتها عائشة:

. بل أنا محقة. فلو كنت تعلمت وحصلت على وظيفة لما كنت أسرب لك النقود الآن بالسر، ولكنت حرة التصرف بما أجني، ولما استطاع زوجي أن يمنعني من ذلك.

وكان كلامها أقوى من أن ترد عليه الأم، فاستطردت:

. وستدركين أنني محقة عندما تتخرج وتحصل على وظيفة، لأنها حينها لن تنتظر أن ينسى زوجها بجيبه القليل من النقود لتخفيها ثم تسلمك إياها، بل إنها وعلى مرأى من الناس ستكون عوناً لك ولأخواتها، ولن تضطري عندئذٍ أن تنتظري قاسماً

ليعطف عليك ويذلك بقرش بعد أن يكون بطنه قد انفرى من أكل اللحم، ثم والأهم من ذلك فكري فيها نفسها، أم أنك تريدين لها مصيراً كمصيري، أعيش تحت رحمة رجل ساذج يثور لأتفه الأسباب ويطردني لأعيش أياماً أنا وأطفالي جائعة بانتظار تحسن مزاجه، ثقي بأنها إذا تعلمت وحصلت على شهادة فإنها ستكون حرة، لأنها ستعمل وقرشها سيكون بيدها، وتتصرف به بحرية.

ولم تقوَ كل مفاهيم الأم وقيمها أن تتماسك أمام المنطق القوي الذي تتحدث به عائشة، فانهارت، واقتنعت الأم بسرعة، بل إنها فرحت حين اكتشفت أن شماء

www.alkottob.com

ستحصل على وظيفة بعد عدة سنين وستكون معيلاً ومحرراً لعائلتها، وثار الحماس فيها، فقررت أن تحدث قاسماً لحسم الأمور بسرعة.

فوجئت شماء بهذا الموقف الجريء لعائشة، وكانت قد استعرضت من قبل كل الحلول الممكنة للخروج من المأزق، لكنها لم تتجرأ حتى على التفكير في هذا الأمر، يا لقوة وعظمة عائشة، كم أنها تحبها، وفكرت بداخلها أن عائشة هي الشيء الوحيد الصحيح في حياتهم وكل ما تبقى خطأ، وكأن كل العوامل المناقضة لمفهوم الحياة الطبيعية والإنسانية قد تجمعت وتوحدت لرسم خطوط حياتهم، وليصبح وجود عائشة بينهم وكأنه حتمية الطبيعة نفسها لتعدل من مسار هذه الخطوط.

وهكذا كان موقف عائشة مفتاحاً للحل، لكنه لم يكن الحل نفسه، فقد بقيت مسألة إقناع قاسم بذلك، وكان الكل يدرك بأنها ليست بالأمر السهل.

في اليوم التالي دعت الأم قاسماً إلى غرفتها وجلست معه وحيدة في حين بقيت الفتيات ينتظرن بقلق في غرفة المطبخ حيث ينام الأب.

حدثته الأم في البداية عن شماء ودراستها وتسلسلت في الحديث إلى أن وصلت إلى موضوع مائة الدينار، فقال قاسم باستغراب:

-وما المطلوب، هل تعتقدين أنني أملك مبلغاً كهذا؟

-أعرف يا بني أنك لا تملك هذا المبلغ، وقد فكرت أنا والفتيات بشخص ما نستدين منه ولكننا أيضاً لم نجد أحداً.

-وأنا كذلك لا أعرف أحداً يستطيع أن يقرضنا مالاً.

-أعرف ذلك أيضاً.

-وماذا تريدين إذن؟

تنهدت الأم بعمق كي تحد من الاضطراب الذي بات يسري في جسدها، وكي تحافظ على توازن كلامها قبل أن تباشر به، قالت:

-رأينا أن ثمن دونمين من الأرض سيحل المشكلة وستحصل أختك على منحتها وتتعلم وتحصل على شهادة تؤهلها للوظيفة فتصبح في المستقبل عوناً لنا أنا وأخوتك ووالدك، ويخف الحمل عن كاهلك.

وكأن الأم قد فتحت نافذة تعوي وراءها الرياح فطيرت عقل قاسم وجن جنونه ووقف، فقد كان الجلوس يحد من حركته وتوتره، ودلق أثناء ذلك كأس شاي كان

www.alkottob.com

أمامه على الحصيرة وراح يصرخ بالكلام بصوت عال:

–لقد وافقت على سفرها وأردت بذلك أن أكون أخاً باراً أتحمل من أجلها ما سيقوله الناس عني، وتركت في الأمس عملي وسافرت معها إلى العاصمة، واليوم تردن بيع الأرض كي تسافر، ولماذا دونمان؟! بيعي الأرض كلها من أجلها! أجل، بيعي الأرض كلها، فأنت لم تلدي غير البنات ولا تفكرين إلا بهن، ألا تذكرين حين بيعت الأرض من أجل عملي؟ ماذا فعلتن حينها؟ أبقيتن ثمنها مع العم إبراهيم خوفاً من أن أستلمه لأنني لست رجلاً بنظركن، بل أنا حمار تركبن على ظهره، لكنني الآن لن أسمح بذلك، وإذا تجرأتن على بيع متر واحد من الأرض فسأريكن أي رجل أنا، لقد صبرتُ على الكثير وأردت أن أكون الأخ المتسامح، لكنكن على مايبدو تردن أكل حقي في مال أبي قبل أن يموت، الآن شماء وغداً فاطمة وبعدها مريم، وابق أنت يا قاسم اعمل واعمل، ومت من العمل كي يتعلمن ويسافرن، أهذا ما تردنه؟ ولكن لا وألف لا، ولا تطلبين مني الرحمة بعد ذلك ولتذهب هي ودراستها إلى الجحيم لأنها لا تهمني سواء متعلمة أم جاهلة.

وأراد أن يخرج ليضع بذلك نقطة ضخمة في نهاية الموضوع تكون كصخرة صلبة يصعب على أي أحد أن يزحزها!

لكن الأم التي لم تستطع أن تقاطعه أو تهدئ من روعه في أثناء ثورته أمسكت بيده وقد شعرت بأن الوحي نزل عليها فجأة وأراها المدخل الذي يمكن لها من خلاله أن تلامس نفس ابنها. لقد كانت الأم في أعماق نفسها تفهم ابنها، لكنها تعامله وتتعامل معه عادة كما تريد له أن يكون لا كما هو في الواقع، أما الآن فيجب أن تحسم الأمر ولصالح شماء انطلاقاً من هذا الفهم، فمنعته من الخروج قائلة:

–أرجوك يا قاسم لا تخرج واهدأ فأنا لم أكمل كلامي بعد.

–وماذا بعد، أي مصيبة أخرى ستزفينها إلي؟

–استعذ بالله من الشيطان الرجيم واهدأ، وكفانا الله شر المصائب، اجلس واسمع كلامي.

–أستطيع أن أسمع وأنا واقف فليس لدي وقت للجلوس.

–أريدك أن تجلس أولاً، وثق أنك لن تندم على ذلك.

أثار كلامها فضوله فجلس، وقالت:

www.alkottob.com

–في الهدوء يا بني تحل أعقد العقد، فلماذا تثور بسرعة، إنك بذلك ترهق أعصابك.

فقاطعها قاسم وقد بدا عليه الاستفزاز من جديد:

–هل أجلستني لتلقي علي محاضرة في الهدوء؟ إذا كان لديك شيء فقوليه دون مقدمات وإلا قمت.

–حسناً، حسناً، لقد شرحت لك أن المبلغ مسترد، فبعد مضي شهر أو شهرين، كما قالت شماء، ستقرر المنحة وستعيد لها الحكومة ما دفعت، وأعدك حينها بأن هذا المبلغ سيكون لك، وستكون حر التصرف به.

كانت الأم تدرك أنها بكلامها هذا ستنقذ الموقف وستحصل على موافقة قاسم، إلا أنها شعرت بضيق شديد في صدرها، فقد قدمت للتو رشوة كبيرة لابنها هم في أمس الحاجة إليها.

صمت قاسم، فقد كان العرض مغرياً له. إلا أنه ارتأى أن لا يفصح عن الموافقة مباشرة حفاظاً على ماء وجهه، فقال:

–لا أعرف ماذا أقول، فأنا بالأساس يهمني أن نحافظ على الأرض وأن لا نبيعها بالأجزاء، ولكن –وتردد– إذا لم يكن من مخرج آخر فما العمل؟ على كل حال دعيني أفكر.

أحست الأم بأسى عميق يجتاحها حين رأت ابنها يتعرى أمامها تماماً ليكشف عن انتهازيته الكبيرة، لكنها كتمت حزنها بداخلها ورسمت ابتسامة مفتعلة على وجهها وقالت:

–لا تقلق يا بني، فسيرزقك الله إن شاء في المستقبل وتشتري ماتود من الأراضي.

انتهى النقاش وخرج قاسم، ولم تقم الأم لتطمئن شماء التي تنتظر بقلق في الغرفة الأخرى، بل بقيت جالسة في مكانها تعبث بخيوط الحصيرة البلاستيكية تشدها وتقطعها دون أن تعي، وتمسح دموعها بين حين وآخر.

لم يفكر قاسم طويلاً في الأمر، فسرعان ما قدم في المساء وصرح بموافقته.

وبيع دونمان من الأرض ودفع ثمنهما أقساطاً للجامعة. سافرت شماء إلى العاصمة وباشرت دراستها، وقد واظبت منذ البداية على الحضور أيام الخميس والجمعة لتقضي عطلة الأسبوع مع أسرتها.

www.alkottob.com

وما إن مضى شهر حتى بدأ قاسم يلح بالأسئلة على أمه عن موعد دفع المبلغ. وكانت الأم تصبره وتؤكد بأن شماء ستحصل على منحة قريباً وسيستردون ما دفعوا. بعد شهرين من بدء الدراسة حصلت شماء على المنحة واستردوا المبلغ. اطمأنت الأم، فبرغم تأكيدها لقاسم كانت نفسها تشك بذلك، ولم تخلف بوعدها فأخذت النقود من شماء حين حضرت يوم الخميس لتسلمها لقاسم، فاحتجت شماء:

-هل ستعطينه المبلغ كاملاً؟ أبقي على الأقل جزءاً قليلاً منه لتشتري خزانة جديدة للملابس، سندفع قسطاً أولياً، وأتعهد أنا بباقي الأقساط من مرتبي الشهري.

فردت الأم:

-الخزانة التي لدينا توفي بالغرض، أما قاسم.. وصمتت بعد أن تنهدت ثم استطردت: -أرجوك يا شماء، لا داعي لإثارة المشاكل. احمدي الله أنك الآن تدرسين، ولنعتبر هذا المبلغ غير مسترد.

لم تصر شماء على موقفها، فقد بدا لها بالفعل أن دراستها تستحق التضحية، وبأنها لابد أن تعوض كل ذلك بعد تخرجها.

استلم قاسم المبلغ من أمه وخرج سريعاً، توجه إلى غرفته ومكث هناك قليلاً ثم خرج. وفي وقت متأخر من المساء جاءت زوجته تسأل عنه فطمأنتها شماء بأنه سيعود حتماً في وقت متأخر. مضى الليل وحل الصباح ولم يأت. حينها بدأت الأم تقلق وخرجت هي وزوجته تبحثان عنه. ولم تمض ساعة حتى عادتا.

بقيت زوجته التي كانت حاملاً بطفلها الثالث في باحة الدار تروح وتجيء، تولول وتكيل الشتائم لهم جميعاً، وتهدد بطلاق عائشة، أما الأم فدخلت الغرفة وبانفعال واضطراب شديدين قالت:

-لقد هرب! هرب إلى دولة عربية مجاورة!

شعرت الفتيات بالمصيبة وقد سقطت على رؤوسهن جميعاً، سألت شماء بتوتر:

-كيف ذلك؟

-أجابت الأم:

-كيف، كيف، حصل على النقود وسافر، لقد توقعت أن يفعل فعلة بهذه النقود، لكنني لم أتوقع أبداً أن يسافر.

www.alkottob.com

فاستعلمت شماء مرتابة:

–وممن علمت. قد يكون الخبر كاذباً.

–لا، الخبر صحيح، أعلمنا به أحد معارفه، فقد رآه في الأمس يركب سيارة نقل خارجية.

–ولم يقل له شيئاً، لماذا سافر مثلاً ومتى سيعود؟

–لا، لم يقل شيئاً.

تساءلت فاطمة بقلق.

–ومتى سيعود؟

فأوشكت الأم على البكاء وقالت بصوت متهدج:

–من أين لي أن أعرف، وهل يعرف أحد هل سيعود أم لا؟! ففي المرة الأولى حين سافر وعدنا أن يكون على اتصال بنا وأن يمدنا بالنقود كلما توافرت، لكنه غاب سنين لا خبر ولا نقود. وهذه المرة، لو كان سيعود لأخبرنا بسفره، أو على الأقل لأخبر زوجته، لكنه ببساطة هرب، –وبدأت تبكي– هرب من أهله ومن أسرته، ليعيش حراً طليقاً بعيداً عنّا جميعنا وفي حل من همومهم، يا إلهي، أية مصيبة أوقعت بنا!

ولم تتجرأ الأم إلا على التوجه إلى الله معاتبة باكية:

–لماذا لم تسمع دعواتي ورجائي، وتأخذ بيده فتهديه، أي ذنب اقترفته في حياتي كي تعاقبني بهذا الابن!

ساد صمت كئيب في الغرفة، فقد كان الحدث /المصيبة أكبر من أن يناقشنه، فيما استمرت شفتا الأم تتحركان وكان صوتها قد اختفى.

بقيت زوجة قاسم تدخل غرفتها ثم تخرج لتكيل الشتائم في حين، وتقارن في حين آخر. فابنهم قد هجرها في ليلة ظلماء، في الوقت الذي يبني فيه أخوها بيتاً لابنتهم، وراحت تتوعد، فهي لن تسمح لعائشة بالعيش في البيت الجديد، وستكون وراء طلاقها، لتسكن هي في ذلك البيت.

ولحسن حظهم كان زوج عائشة مسافراً، كذلك فقد بدأ عمله في النقل يتطلب منه السفر بين الوقت والآخر. أما عائشة فقد كانت مشغولة ببناء البيت على قطعة الأرض التي اشترتها بعد أن وفرت مبلغاً من المال.

لم تخرج الأم أو أي واحدة من الأخوات لتهدئة زوجة قاسم، فقد كن يدركن

www.alkottob.com

بأن أي كلمة تقال لها ستكون بمثابة دلق الزيت على النار، فتركنها لأمرها.

وباتت الأم تقوم وتمشي قليلاً، ثم تجلس واضعة يدها على خدها، لتقوم من جديد وتجول في الغرفة على غير هدى وهي تبكي، وفجأة وقفت وطلبت من مريم أن تذهب لاستدعاء عائشة، فذهبت، وسمع في هذا الوقت صوت الأب من الغرفة الأخرى يذكر بأنه جائع.

فقالت الأم مقطبة حاجبيها:

–وهذه هي مصيبتي الأخرى لا يهمه إلا بطنه و....

ولم تكمل. فقالت شماء:

–اسكتي يا أمي ولا تصبي غضبك عليه، فيكفيه ماهو فيه من حال.

اتجهت فاطمة إلى الغرفة الأخرى وأعدت لأبيها قليلاً من الطعام وأطعمته، في حين رفض الآخرون الأكل.

وصلت عائشة وكانت قد علمت من مريم في الطريق بما حدث. وقبل أن تدخل غرفة أمها وقفت في باحة الدار مع زوجة قاسم محاولة تهدئتها، في حين كانت الأخرى مستمرة بالشتائم والتهديد، فقالت لها عائشة:

–حسناً، حين سيأتي أخوك سيكون لك ما تريدين، سنتطلق جميعاً ويذهب كل في حال سبيله، أما الآن فكفي عن الصراخ لأنه لا يقدم أو يؤخر في الأمر شيئاً.

ثم غيرت نبرتها فهي تدرك المصيبة التي حلت بزوجة أخيها:

–أرجوك أن تهدئي وادخلي معي كي نبحث الموضوع. إلا أن زوجة قاسم رفضت وفضلت العودة إلى غرفتها، فتوجهت عائشة إلى غرفة أمها.

وما أن رأتها الأم حتى سألتها مستجدية:

–ما العمل يا عائشة؟

–وكيف لي أن أدري –وضربت كفيها أحدهما بالآخر وجلست– حين سافر في السابق لم تكن بالمصيبة الكبرى، أما الآن فلمن ترك أسرته، لقد اعتقدنا بأنه سيعقل بعد الزواج وسيبدأ يتحمل المسؤولية، فلديه الآن طفلان وزوجته حامل، ومع ذلك سافر ضارباً بعرض الحائط كل شيء! أي عاقل يفعل فعلته؟ اعتقدت بأنه قادر على التعامل بأنانية فقط مع أهله، أما مع أطفاله! فهذا مالا أستطيع فهمه، أي شخص أناني يخفي في جلده، آه –وصدرت الآه من أعماق دفينة

www.alkottob.com

بداخلها- وأنا، أية غبية كنت حين وافقت على تلك الزيجة وربطت مصيري بمصيره، لقد تأملت أن حياتي ستهدأ، وها هو قد عاد ليثير فيها زوابع لا أدري إلى أين ستطيرني، أية غبية أنا.

ووضعت يدها على عينيها وكأن عاصفة سوداء قد ثارت أمامها برياح قوية تعوي وتقتلع كل غصن في طريقها، وتتسارع باتجاهها. شعرت بنفسها تقف على حافة هاوية، لا جدار تستند إليه ولا جدار تختفي وراءه من العاصفة، ولا محالة لها من السقوط، السقوط الذي كانت تخافه وتقاومه دائماً.

الرياح تعوي والعاصفة تجلجل وعائشة تغمض عينيها بيدها خوفاً من أن تراها، أدركت لحظة أن حياتها كلها عبارة عن عاصفة مؤجلة أمضت عمرها تقاوم وتؤجل حدوثها، وقد حانت الآن هذه اللحظة. أحست برعب فظيع ينتابها، رعب من عمق الهاوية إذا سقطت فيها، ومن سواد الأفق إذا طيرتها الرياح.

اقتربت الأم منها وأزاحت يديها عن عينيها، ولم تتردد عائشة، فبرغم أنها لم تفعل ذلك منذ زمن طويل فهي الآن في هذه اللحظة قد شعرت بضعفها الشديد، ضعف طفلة مذعورة، ألقت برأسها على صدر أمها وبكت. وسال من عينيها الدم الذي حبسته بفمها.

تركتها الأم تبكي، وبقي بكاء عائشة هو الشيء الوحيد الذي يذكر بالحياة في تلك الغرفة فقد جلست الأخوات، والأم يحدقن إلى فراغ مضغوط يوشك على الانفجار.

في ذلك الوقت خرجت زوجة قاسم إلى الباحة وراحت تنادي أطفالها، فقامت شماء لتراها وقد جهزت نفسها للعودة إلى بيت أهلها. حاولت أن تصدها عن قرارها، إلا إن زوجة قاسم ردت:

-ما الذي سيبقيني، وكم من الأيام أو السنين سأنتظر، لا، فليعد كل من حيث أتى، فلم أعد قادرة على الصبر أكثر من ذلك. ففي بيت أهلي سأعيش معززة مكرمة، أما أولادكم -وقصدت أطفال قاسم- فسيبحث أهلي وأخي أمرهم حين عودته من السفر، وخرجت.

وبالطبع لم تتجرأ عائشة بعد ذلك على العودة إلى بيت زوجها فقد كان طردها من هناك محتماً.

عادت شماء إلى الغرفة وجلست في إحدى الزوايا تفكر، إنها السبب وراء كل ما يجري، فلولا دراستها لما حدث شيء. كيف ستستطيع بعد ذلك أن تدرس، كيف

www.alkottob.com

ستواجه نفسها حين تبني مستقبلها على أنقاض حطام عائلتين، لقد كانت مغفلة حين اعتقدت أن حياتها وحياة أسرتها ستأخذ المجرى الصحيح وستكون دراستها هي المنقذ. نعم مغفلة، كان يجب عليها أن تدرك أنهم في تلك الأسرة هم من الذين قدر لهم أن يعيشوا البؤس بكل أبعاده ولآخر يوم في حياتهم. وما كان يجب عليها أن تعارض التيار الذي يسيرهم، كان يجب عليها أن تجلس ساكنة في المركب وإلى الأبد لأن حركتها وكما ظهر قد أخلت بتوازن هذا المركب، فباتت أمواج التيار تلاطمه من كل الجهات لتحطمه وتحطمه وتحطمه. ولتصبح حياتهم فتات حطام، وأحست بأنها قد اقترفت جريمة بحق الجميع، ما الذي فعلته –تساءلت– وأمسكت رأسها بيدها ضاغطة عليه.

ثم انتبهت عائشة إليها وأنها مازالت موجودة على الرغم من أن موعد سفرها إلى الجامعة قد حان، فحثتها على السفر. أجابت شماء بصوت منخفض، إنها فقدت الرغبة في الدراسة خاصة وأنها السبب في كل ما حصل.

فثارت عائشة:

–أي تخريف هذا! السبب فيما جرى ويجري هو أخوك ولست أنت، فهو منذ وعى الحياة لا يفكر إلا في نفسه، حتى الآن وبعد أن أنجب أطفالاً ظهر أنهم لا يعنون له شيئاً مقابل ذاته.

تنهدت بعمق وصمتت قليلاً ثم استطردت:

–اسمعي يا شماء، لقد ضاقت نفسي وليست لديّ قدرة على الحديث، جهزي نفسك واذهبي لدراستك فليس أمامك من خيار آخر.

كانت لهجة عائشة صارمة فتجنبت شماء مناقشتها كي لا تثور مشاكل جانبية وجهزت نفسها وانطلقت، واستمرت خلال الطريق تؤنب نفسها، فمستقبل عائشة أختها مهدد بالانهيار بينما تتجه هي إلى جامعتها، أي منطق أعوج يحرك الأمور؟! لماذا؟ عذبها هذا السؤال: لماذا تركب المعادلات بهذه الطريقة؟ من جديد معادلات خاطئة ونتائج خاطئة، لماذا قوانين الحكومة التي توجب دفع مبلغ سترده فيما بعد؟

ولماذا هم بهذا الفقر، لا مخرج سوى الأرض البائسة التي لا يملكون غيرها؟ ولماذا أبوها مريض وغير قادر على العمل؟ ولماذا رزقهم الله بهذا الأخ؟ ولماذا سافر؟ ولماذا تزوجت عائشة من أخي زوجته؟ ولماذا لماذا لماذا. شعرت بالأسئلة كبركان يثور في رأسها فيغرقها ولا تجد أية إجابة تتمسك بها.

www.alkottob.com

وودت لو توقف الباص بيدها لتعود راكضة إلى الوراء. وبالفعل فقد جلست وشدت بقبضتها على النافذة، وضغطت بجسمها على مقعدها بشدة ودفعته دون وعي إلى الوراء، لكن الباص ظل ينطلق مسرعاً وينطلق معه العالم إلى الأمام، ضغطت أكثر على مقعدها وأرادت أن توقف الزمن نفسه، ليسكن كل شيء من حولها. لتسكن في بيتهم الحركة والمشاكل والهموم. والأهم من ذلك ليسكن شعورهم بالألم، هذا الألم الذي كان يتسارع بتسارع الباص، ويعلو كما تعلو الجبال على طرفي الطريق، لكن شماء أدركت أنها مهما ضغطت على المقعد ومهما شدت قبضتها فلن تستطيع أن توقف أي شيء، كانت حركة الحياة أقوى منها بكثير، ولا تملك سوى ضعفها الذي لن تستطيع أن تواجه به شيئاً، واستمر الباص مسرعاً إلى حيث جامعتها.

مضى اليوم الأول، ولم تنم الأم ولا عائشة ليلاً، ولم تؤثر حبوب المسكن الكثيرة التي تناولتها الأم، وبقي الصداع وضيق النفس يعذبانها طول الليل. ففتحت النافذة برغم برودة الجو إذ كان الخريف في أواسطه، ومع ذلك لم تستطع أن تتنفس بعمق.

وفي اليوم الثاني أصرت الأم على اللجوء إلى العم إبراهيم عساه يساعد بشيء على حل المشكلة. ولكنه وكما توقعت عائشة لم يكن قادراً على فعل شيء، فقاسم خارج البلاد وهذا فوق طاقته. لو كانت مشكلة أخرى وقاسم هنا لتدخل. لكن المصيبة هي في سفر قاسم. وأين سيجده. كل ما استطاع أن يقوم العم به هو محاولة تطمينهم –برغم شكه في ذلك –بأن قاسماً قد يعود بعد أن ينفق المبلغ الذي حصل عليه.

ومضى اليوم الثاني، وعائشة تنتظر قاسماً وترجو الله أن يؤخر قدوم زوجها. وفي اليوم الثالث ساءت الحالة الصحية للأم فلم تعد قادرة على التنفس بشكل طبيعي وأغمي عليها.

وفي أول مرة لعنت عائشة قاسماً بكراهية. وصرخت طالبة المساعدة بعد أن حافظت من قبل وفي كل المآزق على ألا يعلو صوتها.

استجاب الجيران ونقلت الأم إلى المستشفى، مكثت هناك عدة ساعات وأصرت في المساء على العودة إلى البيت بعد تحسن حالتها، وعادت محملة بالأدوية.

وفي اليوم الرابع لزمت الأم فراشها. أصر الأب أن يجلس بجانبها، فقد آلمه كثيراً مرضها، ثم صرخ بانفعال:

www.alkottob.com

-سأقتله بيدي هاتين إذا عاد، فما من خير في حياته.

نظرت إليه الأم بعينين واهنتين مغمومتين وقالت:

-وأي خير في حياتك أنت؟ لو كان فيك خير لما كانت حالتنا هكذا.

لم يجبها الأب. حدق إلى الأرض مخفياً نظرة حزن عميق، إذ شعر بحبل أمه السري حين ولدته وقد التف على جسمه وقيده مدى حياته، ولو ثار الآن على زوجته- وهو لن يفعل، فهو يشعر بالشفقة الكبيرة عليها -لما غير من الواقع شيئاً، فهو عاجز عن فعل أي شيء حقيقي يغير مجرى الأمور.

كانت الحقيقة المرة تسري مع دمه في عروقه، لقد كان عاجزاً وسيموت عاجزاً، ولن يذكره أحد بعد أن يموت، سوى لعنات ستتطاير في الأفق وتجرح روحه، لكونه في حياته قد تسبب في بؤس أشخاص حين أنجبهم، ما كان يجب أن يتزوج وينجب، ما كان يجب عليه أن يولد من الأساس. ولعن الحياة والموت، لأن روحه لن تكتسب السكينة أبداً لا في حياته ولا في مماته.

وفي اليوم الخامس كانت عائشة تقف بجانب النافذة حين رأت باب الباحة يفتح ليظهر قاسم، تجمدت في مكانها واعتقدت أنها تتخيل، لكن قاسماً كان يمشي متوجهاً إلى غرفته، ظلت تحدق إليه وهو يدخل الغرفة ليغيب عن ناظريها، وتأكد لها آنئذ أنها تتخيل، بيد أنه سرعان ما خرج من هناك واتجه نحو غرفتهم. دفع باب الغرفة ودخل.

لم تستطع عائشة أن تحدد مشاعرها في تلك اللحظة: أهي سعيدة بقدومه أم أنها تتمنى لو أنه لم يعد لينتهي وإلى الأبد من حياتهم.

هز دخوله جميعهم، وقف الأب دون أن يدرك لماذا، وحدقت إليه فاطمة ومريم وكأنهما تريانه أول مرة في حياتهما.

جحظت الأم عينيها: بدخوله انحسر البركان الذي تفجر وكاد يجرفهم، بدخوله انبنى العالم الذي تحطم وكاد يسحقهم، بدخوله انطفأت النيران التي اشتعلت وأوشكت على حرقهم، يا لفرحتها! وسالت دموعها، أتبكي فرحاً وشكراً له، أم أنها دموع أسى على من فجر البركان وأشعل النار وحطم هدوء أيامهم؟ إنها لا تدري، إنها فرحة وبودها أن تقوم وتحضنه بيدين مرتجفتين، وحانقة بودها أن تصفعه بهاتين اليدين بكل ما تملكان من حزن وعتاب وغضب، نهضت الأم جالسة في الفراش.

ألقى قاسم السلام بهدوء وكأنه لم يغب عنهم أبداً.

www.alkottob.com

فردت الأم بحنق:

-وأي سلام علينا؟

فاستغرب ردها وسأل:

-هل حدث شيء؟

صعقت عائشة من برودة، أيفتعل هذا البرود أم أنه بالفعل كذلك؟

أجابت الأم ساخرة:

-لا، لم يحدث شيء على الإطلاق سوى أنك اختفيت دون إنذار فلا يعرف أحد أحي أنت أم ميت، أتعود أم لن تعود.

فأجاب:

-لماذا؟ لأنني سافرت بضعة أيام، ألا أملك الحق في ذلك، أم أنك تريدينني أن أربط قدمي برسن في ساحة الدار ككلب الحراسة؟ إنه لشيء مضحك!

حدقت إليه عائشة. وبرغم أنها لم تود قول شيء له أرادت أن تنظر إلى عينيه، فكل مادار بخلدها كانت عيناها تشعان به، بينما تحاشى هو النظر إليها ووجّه سؤاله إلى الأم:

-أين زوجتي؟

-عادت إلى أهلها، وهم هناك ينتظرون عودة زوج عائشة ليباشروا بعملية الطلاق.

هز رأسه ساخراً واتجه نحو الباب ليخرج، فرفعت الأم يدها وهمت باستيقافه لقول شيء. فقد بقي الكثير لتقوله، لكن عائشة منعتها قائلة:

-إنه فاقد الإحساس، وبداخله لا ينبض إلا الأنا، فلا تتعبي نفسك لأنك ومهما قلت لن تحركي فيه شيئاً.

وجلست وهي تشعر بماء بارد ينسكب على جسمها مجمداً كل الأفكار والانفعالات.

12

انتصف يوم الخميس واستمرت الرياح الشرقية الباردة بهبوبها غير آبهة للشمس التي توسطت السماء وباتت تبعث أشعة عمودية.

www.alkottob.com

وصلت شماء. ولأن قساوة الحياة لم تبق في نفوس أهلها سوى القيود التي تكبلها، كان قدومها يشكل دائماً هامشاً صغيراً يذكرهم بمعنى الحياة فيفرحون كثيراً إلى درجة تبدو فيها الحياة وكأنها قد نامت في داخلهم منذ بداية الأسبوع لتستيقظ بقدومها في نهايته.

وصلت قبيل الظهيرة، استقبلوها بشوق وكأنها قد غابت عنهم قرناً من الزمان. أغلقت الأم وراءها الباب سريعاً كي لا تبرد الغرفة، ثم توجهت شماء إلى فراش في طرف الغرفة استلقى عليها أبوها، فسلمت عليه وسألته عن صحته، وتنهدت حين أخبرها بأنه مصاب بصداع دائم، ثم جلست على فراش قريب منه واضعة إلى جانبها حقيبة الكتف وكيساً آخر مليئاً بالأشياء.

حملت الأم المدفأة ووضعتها أمامها، ثم قالت وهي تضع إبريق الشاي على سطحها:

-لابد أنك تعبة وبردانة، وكأس شاي ساخن سيخفف من ذلك!

فأجابت شماء وهي تعرض يديها لحرارة المدفأة:

-نعم، فقد اشتقت إلى شاي المدفأة، لكن أرجو ألا تزيدي من حلاوته!

ثم تناولت شمّاء الكيس الذي بجانبها وراحت تخرج ملابس منه وهي تقول:

-لقد أحضرت لكم بعض الملابس الشتوية، صحيح أنها مستعملة لكنها بحالة جيدة، فقد اشتريناها من محل ملابس مستعملة لم أعرفه من قبل، اكتشفناه مؤخراً أنا وصديقة لي في أحد أحياء العاصمة. وبرغم أن أسعار الملابس في البداية كانت باهظة لم أخجل من مساومة البائع فخفض السعر إلى النصف.

وراحت توزع ما جلبت: فأعطت الأم قميص نوم طويلاً ودافئاً، ثم أخرجت حذاء شتوياً وأعطته لمريم فتناولته الأخيرة بفرح إذ كانت في أمسّ الحاجة إليه، وأحضرت لأبيها جاكيتاً صوفياً فنهض جالساً في فراشه وقال:

-أعطني إياه يا فاطمة، سأرتديه.

ناولته فاطمة الجاكيت حيث ارتداه فوق الكثير من الملابس الخفيفة وبقي فيه فقالت فاطمة:

-اخلعه يا أبي، يجب أن نغسله أولاً.

-لا، إنه نظيف ودافئ. وسأبقى فيه.

بقي الأب يرتديه أياماً عديدة رافضاً خلعه.

www.alkottob.com

أما الأم فراحت تقيس قميص النوم الذي بدا طويلاً جداً مما أضحك مريم، لكن أمها لم تأبه لذلك، وردت قائلة:

-هذه ليست بالمشكلة. المهم أنه ليس ضيقاً، سأبعثه لعائشة كي تقصره. وخصت شماء فاطمة بتنورة طويلة وبمجموعة من الكتب والروايات حيث كانت تهوى القراءة كثيراً، لكن الأم احتجت ففاطمة كانت في سنتها المدرسية الأخيرة وسيلهيها ذلك عن الدراسة.

فرح الجميع بالهدايا فقد حصلوا على شيء جديد وإن كان مستعملاً...

وبعد تناول الغداء، حان الوقت أخيراً للجلوس والاستماع إلى أحاديث شماء. وكانت تلك الأحاديث هي الشيء الآخر الذي ينتظرونه، حيث تنقلهم بما تروي من قصص وبما تصف من أماكن، من غرفهم تلك -ولو فترة قصيرة- إلى عالم آخر يعيشون فيه بخيالهم كاسرين كل الحدود التي تحيطهم. فيطالبونها بأن تعيد رواية طرائف ومغامرات حدثت لها في السكن والعاصمة.

وتلح عليها مريم:

-حدثينا عن مغامراتك الجديدة في السكن.

-هذه المرة ليس من جديد، فقد مضى الأسبوع بلا أية مغامرات.

-إذاً قصي لنا حادثة طبخ الملوخية.

فتذمرت شماء:

-لقد مللت من روايتها:

-لا يهم، سنسمعها من جديد.

استجابت شماء لإلحاح مريم وراحت تروي كيف اكتشفت مرة في أحد الأكياس التي بعثتها معها أمها ملوخية مجففة بدل النعنع، فقررت أن تتجاوز قوانين السكن وتطبخها، فقمن هي وصديقاتها بتحضيرها على الموقد الكهربائي الذي بحوزتهن، إلا أن مديرة السكن شمت الرائحة وكشفت الأمر مما اضطرهن إلى دلقها من النافذة، لإخفاء آثار الجريمة، فأعادت الأم السؤال الذي تلقيه في كل مرة:

-ولم تتذوقنها؟

فقالت شماء:

-وكيف لا، فقد رحنا بسرعة نغط الخبز فيها قبل دلقها. بل أنني تمنيت لو

www.alkottob.com

أكون واقفة في الشارع تحت النافذة وفاتحة فمي كي تتدلق الملوخية فيه.

ضحكن جميعاً، وضحكت شماء معهم وهي تشعر بأنها وهبتهن شيئاً من الفرح.

كانت الرياح الشرقية في الخارج مازالت تهب، فيتسلل جزء منها إلى الداخل عبر الباب الذي يصعب إغلاقه بإحكام، فيبرد هواء الغرفة، حركت الأم مقبض المدفأة بغية زيادة حرارتها وهي تسأل:

-ألا تشعرين بالبرد هناك؟

فردت شماء ضاحكة:

-لا يا أمي، قلت لك من قبل إن السكن مزود بتدفئة مركزية.

كانت شماء قد شرحت للأم عدة مرات من قبل عن مبدأ التدفئة المركزية إلا أن ذلك لم يقنعها أبداً، إذ كيف يمكن لمواسير حديدية يجري فيها ماء ساخن أن تدفئ سكناً ضخماً يضم كثيراً من الغرف، دون وجود نار أو وهج أزرق، لهذا كانت في كل مرة تحضر فيها شماء تسألها عن البرد هناك وتحملها الكثير من النصائح. ثم تعيد الأسئلة نفسها: كيف يسخنون الماء، ومن أين لهم بكميات المياه هذه، وما شكل المواسير ... الخ. وكانت شماء تجيبها بطيبة وبصبر شديد.

قامت الأم من مكانها إذ ذكرها البرد بموضوع آخر، فسألتها شماء:

-إلى أين؟

-سأحضر شيئاً من الأعشاب لتأخذيه معك. أخاف أن أنسى ذلك غداً.

-لا داعي يا أمي، فلدي الكثير منها هناك.

-لا يهم فالكثرة خير من النقصان، قد تصابين بالبرد فتغلينها وتشربينها، وستشكرينني على ذلك، وإذا زاد شيء عن حاجتك فأعطي صديقاتك ولا تبخلي.

لم يكن بمتناول يد الأم شيء آخر تحمله لابنتها في مدينة غريبة. وحين فتحت الأم الباب واجهتها عاصفة غبار، فقالت شماء:

-أرجوك، أغلقي الباب واجلسي، وأعدك بأن أذكرك أنا بذلك غداً ثم اطمئني، فالسكن الذي أعيش فيه دافئ جداً لدرجة أننا ننام بقمصان نوم خفيفة ولا نصاب بالبرد، ولا نأبه للعواصف التي تهب في الخارج، وحين أخرج إلى الجامعة والشارع أرتدي الملابس الدافئة.

ويصبح الخارج مدخلاً لحديث آخر وأسئلة أخرى عن موقع السكن والغابة

www.alkottob.com

التي تحيط به. فتسأل مريم:

-ألا يخيفك منظر الأشجار في الليل؟

-بعض الشيء أحياناً، لكن وجودها مفيد، فهي تحد من سرعة الرياح.

ثم تروح من جديد تحدثهم عن غابات العاصمة وهضابها، وكيف أنها ما زالت تخاف الذهاب إلى بعض الأحياء التي تقوم على جبال مرتفعة.

ويستند الأب ليشارك في الحديث قائلاً:

-لقد زرت من قبل تلك المناطق في فلسطين، فهي أيضاً مليئة بالهضاب والغابات وقد كنا أحياناً نمضي ليالي بطولها سائرين على الأقدام في تلك الغابات حينما كنا نحارب.

بيد أن الأم تقاطعه قبل أن يسترسل في الحديث عن تلك الأيام مدعية أنها سمعت تلك القصص مئات المرات.

أما مريم فكانت تستمع إلى حديث أختها بإصغاء شديد كي تختزن كل تلك القصص والمشاهد في ذاكرتها لتعيد فيما بعد في مدرستها سردها لصديقاتها، مضيفة إليها ما يحلو لها من خيالها، رافعة بذلك نظرها ورأسها عن الأرض ليخترق سقفاً منخفضاً يجثم فوقه.

وسرعان ماحل المساء منبهاً إلى نهاية يوم آخر من حياتهم، لم يشعروا بثقل ساعاته...

مرت السهرة سريعاً كالنهار. وبدأ جميعهم يستعدون للنوم. ونتيجة الصفاء توقّع الأب أن تأتي زوجته لقضاء ليلتها معه، فصارحها بذلك، لكنها أنهضته من فراشه قائلة:

-ليس لك قوة على النهوض من فراشك أيها العجوز، وتريدني أن آتي معك!

اذهب لفراشك وانسَ الأمر.

رد الأب بامتعاض شديد وهو ذاهب، خائب الأمل:

-إنك زوجة عاقة وسيعاقبك الله على ذلك، تبعثين بي لأنام وحيداً في غرفة باردة، سأتجمد فيها، وأعرف أنك ستسعدين بذلك.

وكانت نبرته قد أخذت تزداد حدة، فهدأته فاطمة بأن حملت المدفأة وقالت:

-اطمئن فلن تتجمد، ولا أحد يريد لك ذلك، سأضع المدفأة في غرفتك لتدفئها بعض الشيء قبل النوم.

www.alkottob.com

وقادته لينام في الغرفة الأخرى، فمشى وهو يتمتم بكلام احتجاجاً على سلوك الأم. ساعدته فاطمة على النوم وعادت بعد أن منعت حدوث مشكلة جديدة.

مدت الأم ومريم الفرشات على الأرض واندست كل واحدة تحت غطائها. ناموا جميعاً وأمضت مريم ليلتها في أحلام كثيرة.

كان أول شيء تخيلته هو التدفئة المركزية وفتيات ينمن بقمصان نوم خفيفة. وكان البرد قد ازداد في الليل فراح جسم مريم يرتجف، فأحنت قدميها مقربة إياهما من بطنها وتكورت على نفسها وهي تفكر بأن جسمها قد اختزن من البرد مالا تستطيع أية تدفئة مركزية أن تطرده.

ثم بنت بخيالها بيتاً صغيراً داخلياً تتحرك فيه ضمن ممرات مدفأة ولا تضطر للخروج إلى الساحة إذا احتاجت أن تذهب إلى المطبخ أو المرحاض، وتجلس فيه حيث تريد غير مقيدة بموقع المدفأة، وتنام على سرير لين يرتفع كثيراً عن الأرض، وترتدي قميص نوم أبيض ونظيفاً، وتستحم في حمام يسيل من حنفياته الخارجية من الحائط ماء ساخن لا يبرد أبداً. ويقع البيت على قمة هضبة ترى من خلال شرفته العالم كله.

ودون وعي منها استحال حلم اليقظة إلى حلم آخر أيقظها في الصباح:

كانت تركض في ساحة الدار خائفة من شخص يلاحقها، لم تتبين معالم وجهه لكنه كان يغلي غضباً ويبغي قتلها. استطاعت أن تهرب منه حين دخلت الغرفة التي ينام فيها أبوها وأغلقت الباب وراءها لاهثة فبقي ذلك الشخص في الخارج يزمجر كالوحش. ألقت بنفسها في حضن أبيها فضمها إلى صدره مهدئاً إياها، طابعاً الكثير من القبل على شعرها وجبينها.

كان أبوها طويلاً، قوي البنية، في غاية الطيبة والعطف. أجلسها في مكانه وقام ليتصدى للشخص الذي يلاحقها، فخافت عليه وأرادت أن تبقيه كي لا يصرعه ذلك الشخص. لكنه أصر وتوجه نحو الباب ففتحه، وخرج وأبقى الباب مفتوحاً. ولم تصدق مريم عينيها فصعقت حين تبينت ملامح ذلك الوحش. لقد كان أيضاً أباها.

وراح الأبوان، الطيب والمرعب، يتصارعان بقوة ودون رأفة ينوي كل واحد منهما أن يقتل الآخر.

استيقظت مذعورة ولم تحدث أحداً بما رأت.

لاحظت أن جميعهم قد استيقظوا قبلها فقامت بسرعة وكعادتها جلست بجانب

www.alkottob.com

المدفأة وفكرت طويلاً في الحلم. ثم قامت باتجاه الغرفة الأخرى لتشارك بإعداد الفطور. كان أبوها ما يزال نائماً، أما فاطمة وشماء فلم تنشغلا بتحضير الطعام، بل جلستا على فراش اسفنجي وراحتا تتحدثان بصوت خافت سرعان ما قطعتاه حين لاحظت فاطمة قدوم مريم.

ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي تلاحظ فيها مريم ذلك.

فقد تكرر انفرادهما وتمتماتهما بصوت منخفض مرات كثيرة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد لاحظت في هذه المرة شيئاً على درجة من الغرابة أثار شكوكها. ففي الأمس، حين كانت هي وأمها مشغولتين بقياس الملابس التي جلبتها شماء، استغلت فاطمة الفرصة وتناولت حقيبة شماء وغابت بها بعض الوقت، ثم أعادتها إلى مكانها محاولة ألا يراها أحد، وراحت تقيس ملابسها، وبرغم استغراب مريم لهذا السلوك إلا أن زخم الأحداث والأحاديث أنساها التفكير في ذلك.

لابد أن سراً ما يوحدهما. أثار ذلك فضولها وغيرتها كثيراً:

فلماذا تثق شماء بفاطمة ولا تثق بها، لماذا يقطعن الحديث كلما ظهرت. وما هو ذلك السر. ولماذا اختفت فاطمة بالحقيبة. وماعساه يكون في داخلها. أسئلة كثيرة بدأت تعذبها، ونار غيرة تشتعل بداخلها وتحرقها.

كل هذا عكر مزاجها وقررت أن تقوم بمراقبتهما.

مضى نصف النهار. ثم قررت شماء أن يقمن بزيارة سريعة لعائشة في بيتها قبل العودة إلى العاصمة.

بقيت مريم خلال الزيارة بانتظار سماع شيء ما حول ذلك السر، إلا أن انتظارها كان عبثاً.

وفي اللحظة التي أوشكت فيها أن تعلن لذاتها بحسرة عن فشل مساعيها، شرعت عائشة، وبعد مقدمة دبلوماسية، بإلقاء وصايا لابد لها أن تعيدها على شماء في كل مرة، فقالت:

-أنا أعرف يا شماء أنك ناضجة وعاقلة. لكنني أخاف أحياناً أن تتشبهي هناك بالفتيات الجريئات، وتبدئي بإقامة علاقات مع الشباب.

فتذكري أن تلك الفتيات رضي أهلهن عن سلوكهن أم لم يرضوا فهم في النهاية يقفون وراءهن كالجدار السميك. أما نحن فما من أب وما من أخ تسندين ظهرك إليه. وبالتالي فوضعك يختلف عن وضع باقي الفتيات، وهذا ما يجب أن

www.alkottob.com

تذكريه دائماً قبل أن تقدمي على أي تصرف، فأي خطأ صغير أو كلمة عابرة قد تمسك بسوء كبير، لأن الناس في مجتمعنا كالوحوش يلتهمون الضعيف ويخافون القوي. فلا تفسحي المجال لأحد أن يمسك بكلمة، وانتبهي فقط لدراستك، فلم يبق لك سوى عام واحد وتحصلين على الشهادة. وشهادتك هي الشيء الوحيد الذي سيعوضك عما تفتقدين. فكوني في هذا العام كما كنت في السنوات السابقة.

كانت شماء تنصت بملل إلى عائشة التي تلقي محاضرتها في المرة الألف، ثم علقت ببرود:

-اطمئني، فعلاقاتي مقتصرة على الفتيات فقط، وأحاول دائماً تجنب الاحتكاك بالشباب لأنني أدرك ما تقولين جيداً.

كان الكلام موجهاً إلى شماء وحسب، ومع ذلك كانت عائشة تتحدث وهي ترمق فاطمة ومريم بنظراتها بين الحين والآخر، كأنما تقول بأنهما معنيتان أيضاً. فما قالت ليس مجرد وصايا ونصائح بل هو بمثابة وثيقة يجب على كل واحدة منهن أن تعتمد عليها في انطلاقتها وفهمها للحياة. وعلى رغم الرعب الذي بعثه هذا الكلام في نفس مريم جاعلاً إياها تنكص إلى الوراء قبل أن تخطو أية خطوة إلى الأمام، على رغم ذلك فقد شكل بالنسبة إليها حلاً لعقدة عذبتها طوال النهار.

الشباب. لابد أن السر بين فاطمة وشماء يخص عالم الرجال. وبدأت الأبواب تتفتح في ذهنها لتكشف عما وراءها، وفكرت: لابد أن لشماء علاقة بشاب ما. ولابد أنهما يتراسلان، ولابد أن تكون فاطمة قد أخذت من الحقيبة رسالة. ولابد أنهما في جلساتهما يتحدثان عنه.

لكن فاطمة لم تستطع قراءة الرسالة، فمنذ الصباح وهي تراقبها.

وفي الأمس لم تلاحظ غيابها فترة طويلة.

إذن لابد أن شماء تترك رسائلها هنا لفاطمة. لكن ذلك يشكل مغامرة كبيرة، فماذا لو وجد تلك الرسائل أحد. وتخيلت ماذا سيحصل في البيت:

الأم والأب لا يشكلان خطراً كبيراً. أما قاسم، وترددت قبل أن تحسم رأيها تجاهه إذ أنه لا يشكل عليهن أي ضغط من هذا الجانب، فحين سافرت شماء للدراسة خارج القرية لم يعترض. لقد حدثت حينها مشاكل ولكن لسبب آخر، وليس لأنها فتاة ستسافر وتعيش وحيدة وبعيدة عن أعين أهلها. ثم إنها لم تسمعه في مرة من المرات يسأل شماء عن علاقاتها هناك أو يحذرها أو يهددها بشيء. إن الأمر ببساطة لا يعنيه!

www.alkottob.com

وبرغم أن تعامل قاسم في هذا المجال كان مريحاً فقد كان وضع الأخوات يختلف عن وضع باقي الفتيات في القرية حيث كن يتصرفن بحرية، فإن ذلك لم يكن مصدر فخر لمريم، بل كان يبعث في نفسها الأسى.

وهكذا قررت أن قاسماً أيضاً لا يشكل خطراً كبيراً. واستدركت أن عائشة هي الوحيدة التي سيثيرها الأمر، ولهذا راحت شماء وفاطمة يبالغن بكتمان الموضوع كي لا يصلها.

وسرعان ما سلمت مريم بتحليلاتها تلك لتنتقل إلى الموضوع الأكثر إثارة. ما الذي في الرسالة؟ لم تقرأ أبداً رسائل حب، وبالتالي لم تكتبها، حاولت أن تتخيل نص الرسالة:

"حبيبتي". وشعرت بالرعشة تجتاح جسمها، يا لسحر تلك الكلمة! وخيل إليها أنها لم تسمعها أبداً في حياتها، حتى من أمها.

لقد اشتقت إليك كثيراً وأود أن أقابلك.." وتراجعت فوراً عن هذه الجملة، فأختها شماء عاقلة وناضجة ولن تسمح بذلك، لكنها من المفروض أن تحبه أيضاً، تساءلت، وسرعان ما وجدت الإجابة: ولهذا فهي تراسله.

إنهما لا يلتقيان بل يتراسلان فقط، وارتاحت لهذا التفسير، وسيكتفيان بذلك. هكذا قررت. وبعد أن عجزت عن صياغة باقي الرسالة قررت أن تراقب شماء وفاطمة في المرة القادمة بمزيد من الدقة، فقد يكون كل ما تفكر فيه مجرد أوهام.

مرت ساعات أدت مريم خلالها أعمالاً كثيرة، لكنها كانت طوال الوقت في عالم آخر، وحان وقت النوم. دخلت فراشها وراحت تفكر من جديد، ولكن ليس في مضمون الرسالة ولا الجريمة الرائعة التي ترتكبها أختها. لقد أوصلها تسلسل أفكارها إلى شيء آخر.

لدى أول مرة في حياتها راحت مريم تحلم بخوف وخجل بحبيبها. كان رائعاً لا تعرف اسمه ولا تستطيع أن تتخيل شكله، كان يكفيها أن تتخيل حبه لها، لأنها لا تريد سوى هذا الحب، إنها متعطشة له، فيداه لا تقويان إلا على مداعبة وجهها، ولسانه لا يقوى إلا على ملاطفتها، وقلبه الكبير سيدق عازفاً لحن حب لها يعلو ليذيب كل الأصوات الأخرى بداخلها. ستنتشي بهذا اللحن، وتعانق أيامها لتطير بها مبتعدة عن زمن عجوز يحبو ببطء نحوها لينتزع ما يولد في روحها من الحياة.

وأغمضت عينيها حين غافلها النعاس، وروحها تحلق في فضاء لا متناه من

www.alkottob.com

السعادة.

13

كانت مريم تدرك أن أسبوعها سيكون طويلاً لأنها لا تحب ولا تجيد الانتظار، لهذا ستحسب الدقائق والساعات فيوم الخميس يبدو لها بعيداً، إذ فيه وبعد قدوم شماء ستحسم الأمور وتشبع فضولها وتكشف السر.

لكن ذلك الأسبوع كان يحمل في أحد أيامه حدثاً وإن كان لا يخصها أو يخص أسرتها فقد أنساها سر شماء فترة.

كان ذلك يوم ثلاثاء، وكانت الرياح الشرقية قد كفت عن الهبوب منذ يومين وهدأت تاركة المجال لرياح غربية رطبة وباردة تعلن عن نفسها شيئاً فشيئاً، وتدفع إلى السماء منذ الصباح من أفق بعيد كتلاً من الغيوم، مما أثار بهجة الأم إذ شكّل ذلك بشير خير لها بعد أن قلقت وخافت أن يكون الشتاء جافاً.

في الظهيرة عادت فاطمة ومريم من المدرسة وأحستا برائحة المطر قبل هطوله حين سكبت الأم حساء العدس في صينية ألمنيوم ووضعته على الأرض. تحلقن حول الصينية وبدأن الأكل في حين بقي الأب في الغرفة الأخرى نائماً بعد تناول الغداء.

أظلمت الغرفة قليلاً وكأن أحدهم قد أسدل ستارة ضخمة في السماء. بسملت الأم وقالت:

-خيرك يا الله.

وفتحت باب الغرفة ونظرت إلى السماء. رأت فيها غيوماً رمادية تتقدم بهدوء ووقار. وسرعان ما دوى صوت الرعد، كأنما قرع طبول تحملها الغيوم معلنة بدء عرس في الطبيعة، ثم بدأ المطر ينساب غزيراً بخطوط مستقيمة مؤدياً دوره ببراعة في هذا العرس، وتراكض برحلة حياة قصيرة بين السماء والأرض. وكأنه لحظة زمن قد سالت من السماء لترقد في الأرض وتنتهي.

وعادت الغيوم تقرع طبولها.

واستمر المطر، مطر لا يزعج أحداً، تلتمع حباته حين يخترق الأفق الرمادي بارقاً كالسيف.

ومضت ساعات النهار مبللة بالمطر.

www.alkottob.com

ولم يدرك الناس حين أظلمت السماء أهو المساء قد حل مبكراً أم أن الغيوم السوداء التي بدأت تكتسحها قد حجبت الرؤية.

جلست الأم وفاطمة في الغرفة بجانب المدفأة، وفي الزاوية القريبة من الباب وضع سطل فارغ كان الماء الذي يدلف من السقف يتساقط فيه خطوطاً تُحدث قرقعة تتناغم مع صوت العاصفة في الخارج.

جلست مريم في الزاوية الأخرى. فقد كانت تعتقد أن الزاوية هي المكان الأكثر أمناً في الغرفة، وأغلقت أذنيها حين صفرت الرياح عالياً وكأنها أنين وحش يجر حملاً ثقيلاً، وخيل إليها أن وجه السماء تحول إلى سواد كالح يكشف عن أنياب بين لحظة وأخرى، ويدوي في الأفق رعداً ملتهماً بقايا سكون فتتته العاصفة، حتى المطر بدا لها وكأنه يقذف من السماء شظايا انفجارات تحدث هناك.

استمرت العاصفة، ولم يكن هناك أي شيء يوحي بقرب انتهائها، فكان عواؤها وضجيجها يعلوان ويقويان محطّمينِ ساعات الزمن.

وفجأة دوى صراخ نساء، وكأن العاصفة استنفدت كل ما لديها من هدير فداعبت النساء حاثة إياهن على مشاركتها.

أنصتت الأم كي تميز الأصوات. كان صراخ نساء يدوي من مكان قريب، قامت لتستوضح الأمر، فرجتها مريم:

-أرجوك لا تفتحي الباب ولا تخرجي.

وخيل إليها أن العاصفة قد تحولت إلى وحش يزمجر ويدوس العالم بقدميه محطماً كل شيء يصادفه.

لم تستجب الأم لها وخرجت.وسمعت صراخ النساء بوضوح، فتوجهت إلى بيت قاسم ونادته:

-ألا تسمع الصراخ؟

-بلى سمعت، ما الذي حدث؟

-لا أعرف، لهذا جئتك لتستطلع الأمر، اذهب يا بني واعرف مصدر الصراخ، فلابد أن مصيبة قد حلت بأحدهم.

-حسناً سأرتدي المعطف وأذهب.

فكرت الأم قليلاً وقالت:

www.alkottob.com

–سآتي معك، انتظرني.

–لا داعي لذلك. ابقي في البيت فمن الأفضل والأسرع أن أذهب وحدي. وارتدى معطفاً قديماً دون أن يزرره فتطايرت أطرافه إلى الوراء حين ركض مسرعاً نحو باب الباحة.

وقفت الأم تحت المطر وقد تبللت ثيابها وقالت بصوت عال كي يسمعها قبل أن يخرج:

–يبدو أن الصراخ قادم من الجنوب.

فرد عليها قاسم وهو خارج:

–وأنا أيضاً أظن ذلك.

دخلت الأم الغرفة وبدأت تخلع ملابسها المبللة وهي تقول:

–لقد جن جنون العاصفة، منذ سنين لم تمطر بهذا الشكل. أمض الليلة بسلام يا الله.

سألتها فاطمة.

–هل عرفت ماحدث؟

–لا. بعثت بقاسم كي يستطلع الأمر، لابد أن مصيبة قد حدثت، شعرت بذلك، فقد حدثني قلبي بأن مصيبة ستحدث حين اسودت السماء، غفرانك يا الله.

وامتزج الرعب والمصيبة وصوت العاصفة بقلب مريم، فأخذ ينبض بسرعة مثيراً رجفة في جسمها. أما فاطمة فقد بدأ التوتر يظهر عليها فلم تستطع الاستمرار بقراءة الكتاب ووضعته جانباً، وجلست صامتة. فيما أخذت الأم تروح وتجيء مستعجلة قدوم قاسم، ثم فتحت باب الغرفة لعلها تراه في الخارج. لم تر سوى مطر وريح قوية تطيّر كل ما يصادفها في الساحة. سمعت أصوات أناس مسرعين في الشارع، فأسرعت بتناول بطانية ووضعتها على رأسها وخرجت. فتحت باب الباحة الخارجي، ورأت الرجال قد تعدوا بيتها يسرعون الخطى ويحملون فؤوساً ومعاول، ولم تمسك عن مناداتهم، توقف أحدهم ونظر إلى الوراء ثم توقف أحدهم ونظر إلى الوراء ثم توقف الآخرون واتجهوا نحوها، فقالت:

–اعذروني لاستيقافكم، أردت أن أعرف ما الذي حصل في القرية إذا كان لديكم علم بذلك؟

أجابها أحدهم:

www.alkottob.com

-انهارت إحدى غرف بيت صالح الأحمد، ولسوء حظه كان موجوداً فيها وقت انهيارها.

شهقت الأم:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، وهل مات؟

-لا أحد يعرف حتى الآن، فهو ما يزال موجوداً تحت الأنقاض. ويحاول الناس الآن إخراجه. قالوا ذلك وهم يديرون ظهورهم مسرعين باتجاه الجنوب.

عادت الأم راكضة إلى الغرفة وهي تهز رأسها أسفاً.

كان صالح الأحمد عجوزاً بخيلاً يناهز السبعين من عمره، أباً لأربع فتيات وستة شبان، ويملك دكاناً. بعد أن تزوجت ابنتاه الصغيرتان وأربعة من أبنائه الشباب وبنوا لأنفسهم غرفاً باطونية في البيت نفسه، بقي هو وزوجته وأبناؤه الآخرون وابنتان عانستان يعيشون في ثلاث غرف طينية.

حين سمعت مريم بالحادث المروع تكورت على نفسها في الزاوية وأبقت نظرها في الأرض كي لا تصادف عيناها السقف إذا نظرت إلى مكان آخر.

كان السقف مكوناً من عدة طبقات، امتدت في طوله جسور حديدية، تقاطعها في العرض جسور خشب تحمل قضبان القصب لتحمل طبقة من الطين تغطيها طبقة من الأسمنت. كل هذه الطبقات في الأيام العادية كانت تخيفها لاعتقادها الدائم بأنها تخفي في ثناياها أفاعي وحشرات وجناً وعفاريت تبدأ بالزحف والخروج معاً من جحورها ما أن تحل العتمة. أما الآن فهي تخاف شيئاً آخر. هل سيصمد هذا السقف أمام العاصفة؟ ضغطت على رأسها بكلتا يديها كي لا ترى ولا تسمع أي صوت سوى صوت رعبها الداخلي.

قالت فاطمة معلنة عن قلق بداخلها:

-يجب أن نفرش لأبي هنا. فلا يجوز بقاؤه في الغرفة الأخرى وحيداً. وافقتها الأم وشعرت مريم بأن ذلك قرار صائب، فإذا ما انهارت غرفته فسيكون معهن وينجو، وإذا انهارت هذه الغرفة فسيواجهون المصير معاً.

ثم ساعدت فاطمة أباها في الحضور إلى الغرفة الأخرى بعد أن نقلت مريم بسرعة أغطيته ملفوفة بمشمع كي لا تبتل.

ومن جديد جلس الجميع صامتين مرعوبين. أخذت الأم بيدها مسبحة وراحت تسبّح الله وهي تنقل بأصابعها حبات المسبحة بسرعة مضطربة.

www.alkottob.com

والعاصفة في الخارج لا تكف.

قال الأب:

-إنه غضب الله. فالناس لا يذكرونه إلا في المصائب.

فقالت الأم:

-وهل تذكره أنت! لا أعي أنني رأيتك تصلي.

-وكيف لي أن أصلي. إن الله لا يعتب على أمثالي.

-صل بقلبك.

-ومن أين لك أن تعرفي أنني لا أصلي بقلبي!؟

تدخلت فاطمة قائلة:

-أرجوكما كفا. فالمصائب تحل بالناس وأنتما تبحثان عن مبرر لتتشاجرا.

صمت جميعهم إلا الأم راحت تقرأ آيات قرآنية بصوت مرتفع باعثة رهبة إضافية في جو الغرفة مذكرة الجميع بالموت.

حضر قاسم. دفع بيديه باب الغرفة بسرعة ودخل. كانت ثيابه مبللة متسخة فساعدته الأم على خلعها وأجلسته بجانب المدفأة.

وسألته:

-ها، حدثنا عما جرى.

-لقد انهارت إحدى الغرف في بيت صالح الأحمد، وكان هو في داخلها فتوفي. -رحمه الله. أية ميتة هذه! وكيف حصل ذلك، ألم يستطع الخروج منها قبل انهيارها؟

-كما سمعت فالقصة حدثت كالتالي: انهارت في البداية إحدى واجهات الغرفة، وكان هو وأسرته في غرفة أخرى، وحين سمع ذلك قام مسرعاً متجهاً إلى داخلها، وكما قيل فإنه على ما يبدو كان يخفي فيها شيئاً ما أراد استخراجه منها قبل انهيارها كلياً. والظاهر أن أسرته لم تكن على علم بما يخفي فاستغربوا سلوكه، وحاولت زوجته وبناته منعه إلا أنه أصر ودخل، ولم يسعفه الوقت فانهار السقف على رأسه.

فسألت الأم باستغراب:

-وماذا كان يخفي؟ أي شيء يستحق أن يضحي بحياته من أجله؟!

www.alkottob.com

-نقوداً، طبعاً.

-لا حول ولا قوة إلا بالله. غفرانك يا الله. رحمة الله عليه.

وبرغم أن الأم لم تصرح بأن الله قد عاقبه على بخله في حياته بهذا المصير. فإن ذلك كان إثباتاً جديداً لها بان الله لا ينسى أحداً.

وهدأت كل الأصوات إلا صوت العاصفة فقد استمر في تلك الليلة هادراً غاضباً.

14

هدأت العاصفة بعد يومين ولم تبق إلا أمطار تهطل في أوقات متفرقة من النهار. وحين تذكرت مريم أن يوم الخميس قد حل شعرت بامتنان من العاصفة.

بقي قاسم جالساً بعد الفطور وبدا عليه أنه يريد بحث أمر ما. فقال وهو ينظر إلى السقف.

-هذه الغرف ليست متينة. ستنهار في يوم ما.

فردت الأم: -وما العمل يابني. فليس لنا من مأوى آخر. وعلى فكرة لا ضرر في أن تمد طبقة إضافية من الإسمنت على سطحها، خاصة وأن السقف فيه الكثير من الثقوب التي يدلف من خلالها.

فقال: -هذا لا يفيد. يجب أن نبني بيتاً آخر.

تفاجأت الأم برأيه:

-رأي حكيم يا بني.. ولم لا، إذا كنت تملك نقوداً، خاصة وإن مهنتك البناء ولن تحتاج لمن يبني لك. فقال:

-بالطبع لن أحتاج. لكنني لا أملك نقوداً.

فنظرت إليه وكأنما لم تفقه شيئاً: -وكيف ستبني إذاً؟

-لقد فكرت في الأمر طويلاً واستفسرت عن إمكانية تحصيل قرض من البنك.

تساءلت الأم بقلق:

-قرض من البنك؟ وكيف ستحصل عليه. هل باستطاعتك تسديده فيما بعد؟

-من الممكن الحصول عليه إذا قمنا برهن ساحة البيت. ثم إن عملية تسديده

www.alkottob.com

ستكون على مدى عدة سنوات. سأقوم أنا في البداية بتسديد الأقساط. وبعد سنة ستتخرج شماء من الجامعة، وستساعدني على ذلك عندما تحصل علي وظيفة.

صعقت الأم للمرة الألف من مكر ابنها. لكنها ردت عليه بهدوء:

–لا يجوز لك أن تخطط للمستقبل هكذا. فشماء مازالت طالبة ولا نعرف ماذا سيحصل لها بعد التخرج. ولا تغضب مني يا بني على ما سأقول، فأنت إذا بنيت بيتاً إنما تبني لنفسك ولأسرتك، فالفتيات مصيرهن الزواج، ولا يعرف إلا الله كم بقي لي ولأبيك من العمر نقضيه في بيتك. فلا تحمل شماء مسؤولية قد لا تكون قادرة عليها، وكل ما أرجوه من الله هو أن يرزقها بابن الحلال الذي يوافق إذا توظفت أن تساعدنا أنا وأخواتك على العيش.

اكفهر قاسم:

–لكنني فكرت في البناء من أجلكن بالأساس. وسأهدم هاتين الغرفتين ونحسن بهذا منظر البيت.

–هذا جميل يا بني، كنت أتمنى ذلك منذ زمن بعيد، وكان بإمكانك فعله. ولكن –ترددت قليلاً، ثم استطردت:

–انظر إلى أختك عائشة، لقد بنت بيتاً وفّرت ثمنه بصبر مما كان يجني زوجها، برغم أن مرتبه الشهري ليس بالكبير، لكنها بحكمتها وتدبيرها استطاعت ذلك، وأنت، لا تغضب ولا تثر فأنا لا أبغي من كلامي إلا مصلحتك. كنت تجني الكثير في كل مرة تبني فيها بيتاً، لكنك وزوجتك لا يهمكما إلا يومكما، وحين تتوافر النقود لا تفكران إلا بما تأكلان. وأبقى أياماً ألملم في ساحة الدار فاكهة يقضم أطفالك جزءاً منها ويرمون الباقي. زوجتك يابني لا تقدر النعمة، وهذا حرام، والله لا يرزق من لا يقدر نعمته.

اكتفت الأم بذلك فقد خافت أن تشير بطريقة أو بأخرى إلى سلوك قاسم في التعامل مع النقود.

فرد بعصبية:

–اعتقدت أنك ستسرين على الأقل في هذه المرة مني حين أخبرك بنيتي على بناء بيت من أجلكم. لكنك كالعادة تحولين الموضوع لتلقي علي محاضرة في التدبير والتوفير. هل تريدين لأطفالي أن يموتوا جوعاً كي أبني بيتاً لكم؟

–معاذ الله يا بني، فأطفالك أحفادي وأنا أحبهم كما أحبك لكن ما قصدت قوله،.. وقاطعها:

www.alkottob.com

–فهمت ما تريدين قوله. أنا لا أعلق أملاً على شماء في مساعدتي بينما بيعت الأرض من أجل دراستها، لأنها كما كنتم تزعمون ستكون لي خيراً من ألف أخ.

جحظت عينا الأم فمن أين له هذه الجرأة والوقاحة ليصرح أمامها بأن الأرض بيعت من أجل شماء. فالأم تعاني وستعاني بقية عمرها من آلام الضغط وضيق النفس بسبب هربه.

تنهدت بعمق وقالت:

–على كل حال يابني الحديث عن وظيفة ومرتب شماء سابق لأوانه، ولا أحد يدرك ماذا سيحصل في الغد إلا الله، فدع كل شيء لوقته.

خاب أمل قاسم فقد كان يأمل في الحصول على وعد ما من أمه.

قالت له الأم قبل أن يهم بالخروج:

–إذا لم ينجح موضوع القرض من البنك ولم تستطع البناء فسيعيننا الله على العيش في هذه الغرف ولن يصيبنا إلا ما قدر لنا.

في وقت الظهيرة وصلت شماء. كانت أنيقة برغم البساطة الدائمة في لبسها، وكانت تحرص على أن تضع منديلاً على شعرها المجعد الذي تعلمت في العاصمة طرقاً لتصفيفه وتنعيمه تزيدها جمالاً. أما وجهها فكان على قدر كبير من البراءة والطيبة: عينان سوداوان، أنف دقيق، ذات بشرة حنطية.

في هذه المرة كانت الأحاديث والأخبار لدى أهلها، فما أن ارتاحت وتناولت طعام الغداء حتى راحوا يحدثونها عن العاصفة وعن موت صالح الأحمد وكيف سقط السقف على رأسه في حين كان يبحث عن نقود أخفاها عن أسرته في هذه الغرفة.

تنازلت مريم عن متعة قص هذه الحادثة لأمها وفاطمة وشغلت بمراقبة حقيبة شماء. لم يكن انتظارها عبثاً، فقد استغلت فاطمة انفعال الأم وهي تحكي عن بخل صالح الأحمد ومريم تستمع، فأخذت الحقيبة بحذر واختفت بها دقائق، ثم عادت. فقدت مريم كل هدوء وبات الفضول يسري بعروقها بدل الدم. وقررت أن تنتظر الوقت المناسب لتكشف السر بعد أن أصبح شكها يقيناً. لقد أخذت فاطمة من الحقيبة رسائل وأخفتها في مكان ما من الغرفة الأخرى. ولم تستطع الانتظار، فذهبت إلى هناك تفتش بسرعة، بحثت في خزانة المؤن ولم تجد شيئاً، وقفت وتلفتت حواليها. أين يمكن أن تخبئها؟

www.alkottob.com

وقع نظرها على الصندوق، كان صندوقاً قديماً وضعت فيه الأم ملابس عتيقة ليسوا بحاجة إليها لكنها كانت ترفض دائماً التخلص منها مدعية أنها ستفيدهم ذات يوم.

حين دخلت فاطمة الغرفة ورأتها واقفة تفكر أجلت مريم البحث إلى المساء كي لا تثير شكها. ولم تمض ساعات النهار بسرعة، كان الانتظار متعباً وقاسياً، فلم تفلح كل أحاديث شماء بجعلها تنسى ما يمكن أن يكون في الصندوق. وقررت أن تقوم بالبحث مساء حين تساعد أباها على النوم.

استلقى الأب في فراشه واهتمت مريم بأن تغطي ظهره جيداً كي لا يلامس الحائط البارد. وبقيت عيناها وفكرها معلقة بالصندوق، فاتجهت نحوه، وفتحته بحذر شديد كي لا يثير ضجة ومدت يدها، ولم تلامس سوى ملابس قديمة فاحت رائحتها، خافت أن تمسك بفأر بدل الرسائل فسحبت يدها بسرعة، لكن فضولها وشوقها جعلاها تمد يدها من جديد غير آبهة لما يمكن أن يصادفها. وغاصت حتى قاع الصندوق. وفي تلك اللحظة خافت أن يسمع أهلها في الغرفة الأخرى صوت دقات قلبها لشدة ما تسارعت واضطربت فيهرعون إليها. لقد لامست يدها الكثير من الأوراق، شعرت برعشة تجتاح جسمها. هاقد وجدت أخيراً ما تبحث عنه. هذا يؤكد أن شماء بالفعل ترتكب جريمة كبيرة، ويعني أنها ستقرأ الآن كلاماً عذباً وجميلاً.

هذا يعني أنها كشفت سراً لا تبغي شماء أن تطلعها عليه. أنبتها هذه الفكرة قليلاً لكنها سرعان ما تناستها.

سحبت بيدها ما استطاعت أن تسحب فقد كان هناك الكثير من الأوراق.

يا لفرحتها العظيمة. وفكرت لحظة أن تخفي الرسائل في عبها لتقرأها فيما بعد بهدوء، تتمتعْ في كل كلمة، وتقف عند كل حرف لتنخل منه كل معنى مباشر أو غير مباشر. لكن الفضول كان يلح عليها.

كان ضوء الغرفة خافتاً أصفر ينبعث من لمبة متسخة معلقة في نقطة عالية من الحائط بجانب الباب.

استطاعت أن ترى في البداية مابين يديها شيئاً لا يشبه الرسائل، كانت أوراقاً تشبه أوراق الكتب بحروفها المطبوعة، والورقة الأخيرة لم تكن ورقة واحدة، بل كتيباً صغيراً. شعرت بالخيبة، لكنها واست نفسها بأن من الممكن أن يطبعوا الرسائل بهذا الشكل في العاصمة، وقررت أن تبدأ بقراءة الكتيب الصغير، كونه

www.alkottob.com

يوحي بفيض من الغرام. ويا لخيبتها الثانية. قرأت ولم تفهم ولم تستوعب ولم ولم ولم. شيء لم تقرأه من قبل لا في الكتب المدرسية ولا في غيرها:

"أيها الزملاء الأعزاء!"

أمن الممكن أن يخاطبها حبيبها بالزملاء. أهو مهذب لهذه الدرجة. ولماذا الزملاء وليست الزميلة؟ استمرت بالقراءة والخيبة تعصر قلبها. وأثار انتباهها ما ختم به الحديث:

"المجد لرفاقنا الشهداء ولرفاقنا الذين يقبعون الآن في سجون النظام المعتمة". أي شهداء وأي سجناء وأي رفاق! لم تفهم.

لكنها فهمت شيئاً وحيداً وهو أن ما كانت تقرؤه ليس برسائل غرام. واكتأبت. وحين رفعت نظرها استطاعت برغم ضعف الضوء أن ترى نظرة الغضب في عيني فاطمة التي وقفت أمامها.

في اليوم التالي وبعد أن ودعت العائلة شماء، تناست مريم التأنيب الذي طالها منها وبقيت تفكر في الكلام الكثير الذي سمعته فيما بعد.

كان صوت شماء وهي تتحدث منخفضاً جداً. وكانت مريم تصغي إليها بكل حواسها، حتى إن عينيها اللتين تحولتا إلى علامتي استفهام كبيرتين في وجهها راحتا تتفرسان شماء متعطشتين لكل كلمة من كلامها. ولم ترتجف أوصالها حين كانت شماء تؤكد خطورة الأمر وسريته. بل إنها فرحت وسرعان ما نسيت خيبتها. وشعرت بأوهامها السابقة تافهة وصغيرة أمام ذاك الشيء العظيم الذي سمعته وتشربته روحها الظمئة كما تتشرب قطعة إسفنج جافة قطرات ماء تتساقط عليها. لقد وجدت أخيراً الشيء العظيم الذي تبحث عنه دون وعي منذ زمن طويل. وأحست أن غشاوة كانت تعكر الصورة أمامها قد انقشعت. فأصبحت ترى العالم بوضوح:

التغيير. هي تلك الكلمة التي كانت غائبة عنها. هي تلك الكلمة التي لم تفكر فيها وتحاشتها دائماً. برغم حلمها الخفي بها. فقد كانت دائماً تحلم بحياة أخرى، بعالم آخر، وكانت تذوب في الحلم ساعة أو ساعتين لتعود إلى تفاصيل ثقيلة في حياتها، وهي تدرك أنها غير قادرة على فعل شيء سوى الحلم. الحلم الذي لا تملك غيره والذي يشكل لها ملاذاً وحيداً تلجأ إليه حينما تتراكم هموم الحياة أمامها وتصهر كل شيء في نطاق أسود يلتف حول عينيها لا تعود ترى شيئاً من خلاله، فتغمض عينيها وتحلم، تحلم، تحلم، بكل ما تقوى روحها على

www.alkottob.com

الحلم، لتتحول عيناها إلى حلمين يائسين يصبوان إلى أفق بعيد ومستحيل! أما الآن فقد غدا هذا المستحيل ممكناً، وستشارك هي بصنعه. وهاهي مرحلة على غاية الأهمية والخطورة تبدأ في حياتها. أحست بحماسة شديدة تجتاحها، وأنها قادرة على أن تضحي بأي شيء تملكه حتى أحلامها في سبيل ذلك. لا بل والأهم من ذلك كله أنها هي، تلك الفتاة البائسة والفقيرة التي داست الحياة بحذاء كبير على رأسها فأبقته محنياً دائماً. ستستطيع رفعه أخيراً، على الأقل أمام ذاتها.

ولدى أول مرة التمع بريق صاف في عينيها، وشعرت برغبة جامحة في الانطلاق.

15

ومضى الربيع سريعاً في ذلك العام ولم يستجب لرجاء في عيني مريم كان يلح عليه بالبقاء...

فقد كانت قبله تترقب بشوق انبعاث الأخضر من كل شيء ميت، حتى خيل إليها أن جدران غرفهم الطينية يجب أن تزهر. ولم لا؟ لم لا ينطلق من تلك الشقوق عشب أخضر بدل الزواحف... فهي في النهاية مكونة من طين وحجر كالأرض. وفكرت هنيهة أن غرفهم في الحقيقة أقرب ما تكون إلى القبر، قبر محفور في فضاء رمادي منخفض يرقد فيه أناس يمارسون بحركتهم الغريزية شكلاً آخر من الموت. لم تتوقف كثيراً عند هذه الفكرة لأنها فضلت أن تفكر في كل ماهو جميل وأن تتخيل جدران غرفهم وقد غطاها الأخضر متحدياً لون الأرض.

في ذلك الربيع انتمت إلى العمل السري. وكان للانتماء سحر خاص في نفسها، فباتت تنتشي بزخم من المشاعر يجعلها تعيش حالة لم تحسها من قبل: حالة الانتماء.

كان كل شيء قد خرجت منه يثير فيها خجلاً وأسى.

كانت تخجل من اسمها، من بيتها، من فقرها، من جنسها. وتتمنى لو تخلع كل ذلك عنها كما تخلع ثوبها فتتعرى كما تتعرى الأرض قبل الربيع لتخضر.

وليزهر شيء مافي واقعها كي ترتبط به.

لكن الواقع من حولها كان مفككاً. وكأن يداً تحمل منشاراً انهارت من السماء على شجرة يابسة فقطعتها أجزاء صغيرة ثم رمتها في نار لتكون لحظات الاحتراق

www.alkottob.com

هي الرابط الوحيد لهذه الأجزاء، لهذا الواقع.

أجل، إنه واقع جاف لا يقوى إلا على الاحتراق، فيتطاير منه رماد أسود سرعان ما يستكين على روحها وأيامها مشكلاً طبقة سميكة كالغبار.

وكأن الآن يداً أخرى امتدت من ذلك التنظيم، لتمسح الغبار ولتشدها إلى جدار متين تسند ظهرها إليه. فلا تعود بحاجة إلى الاسم ولا إلى البيت، يكفيها الشعور بأن قدميها ثابتتان على الأرض... ولا سقف يحد من امتداد الأفق أمام عينيها.

16

تخرجت فاطمة في المدرسة أواسط الصيف ولم تخيب أمل أحد حين تفوقت ونالت معدلاً عالياً يؤهلها بجدارة للحصول على منحة حكومية للدراسة في الجامعة. وكان قاسم وقتذاك يشارف على إنهاء البيت الذي شرع ببنائه بعد أن حصل على قرض مصرفي كفله به أحد الأقارب.

أما الأب فلم يستطع الصيف بحره ولا حساء الدجاج، الذي كانت تجلبه عائشة كلما استطاعت، أن يحسنا من حالته الصحية، فاستمرت تميل إلى السوء. لم يكن أحد يعلم بعلته، كان مريضاً ومرضه يتزايد، يده وقدمه ترتجفان بشدة وجسمه أصبح هزيلاً وضعيفاً، وبات لا يقوى على النهوض من الفراش إلا بمساعدة أحد. لم تفهم مريم بعد سنوات طويلة لماذا لم يعرض آنذاك على طبيب، هل كان اتفاقاً ضمنياً بين أفراد الأسرة كي يعجلّوا في موته، فينقص عددهم؟ لكأن حياتهم طريق في غابة مظلمة والمضي فيها للأقوى، فإذا مرضت فأسرع للموت لأن ذلك سيسهل على البقية السير قدماً. أي لؤم ذلك! كيف يمكن للحياة التي ارتقت ليكون الإنسان ذروة مراحل تطورها أن تجرد ذلك الإنسان من إنسانيته!؟

بقيت مريم سنين طويلة تتذكر أباها وهو يئن، حتى أنها لم تعد تذكره إلا في حالته تلك. أي وجع كان يؤرقه في تلك اللحظات؟ لا تدري. هو نفسه لم يكن يشكو من شيء محدد، كان يئن ويضعف ويتهاوى في آن واحد. وشكت مرة بأنه اتفق مع الآخرين ومع نفسه على الموت. فلم يطالب بشيء ولم يتذمر. اكتفى بأنين كان يخرج من جسمه على الرغم منه. واستمر عدة أشهر.

في مطلع الخريف التحقت فاطمة بجامعة افتتحت حديثاً في المدينة

www.alkottob.com

المجاورة، فوفرت عليها مصاريف السكن، ولم يبق لها إلا دفع قسط الدراسة الذي اقترضته من عائشة متداركة بذلك حصول مشكلة كالتي حصلت مع شماء.

اكتمل البيت الجديد في ذلك الوقت. كان مكوناً من أربع غرف يفتح ثلاث منها على صالون عريض ذي باب واسع يفضي إلى غرفة مستطيلة تشكل واجهة البيت، أما الغرفة الرابعة فقد فتح بابها الوحيد على الشرفة وعزلت بهذه الطريقة عن بقية الغرف. وقد تنازل عنها قاسم لأهله وشغل هو وأسرته بقية الغرف.

انتقلت الأم وفاطمة ومريم إلى الغرفة الجديدة ونقلن معهن ما تملك العائلة من أثاث قديم مكون من فرشات قديمة وأغطية، وحصيرة بلاستيكية وخزانة قديمة. لم تتحقق آمالهم بشراء أخرى جديدة، ومع ذلك فقد سرت مريم كثيراً حين خصص لها ركن في تلك الخزانة، أحد الأدراج كان لها وحدها، تضع فيه الأشياء التي تملكها، حتى أنها فكرت مرة بوضع قفل له، تحمل مفتاحه لتؤكد بأنها الوحيدة التي تملكه، برغم أن مافيه من أشياء قد لا يبدو للآخرين ذا قيمة تذكر، لكنه كان بالنسبة إليها شيئاً رائعاً.

والشيء الوحيد الذي اشتروه كان مكتبة حديدية، بدا منظرها مقبولاً حين غلفت فاطمة قضبانها ورفوفها بورق لاصق بلون الخشب، ورتبت على رفوفها العليا ما يملكون من كتب وعلى الرف السفلي وضعت التلفاز الذي قدمه لهم العم إبراهيم بعد أن اشترى لنفسه آخر جديداً.

وهكذا أصبحت مريم تنام تحت سقف أملس لا طبقات فيه ولا جحور. فبدأت تشعر بشيء من الأمان، سيما وأن خطر انهيار هذا السقف غير قائم. فباتت تنام كاشفة رأسها، تحدق في السقف طويلاً، على عكس ما كانت تفعل في الغرف الطينية.

أما الإضاءة فكانت عبارة عن نيون علق على الحائط فوق الباب يضيء الغرفة بضوء فضي أعجبها، وعلقت فوقه لمبة سرعان ما أصبحوا يميلون إلى استعمالها بدل النيون نتيجة الرنين الذي يصدر منه وقت اشتعاله.

انتقلت الأسرة إلى الغرفة الجديدة وبقيت إحدى الغرفتين فارغة فبدت لمريم كعجوز هرم فغر فاه دهشة وحزناً حين هجر. أما الغرفة الأخرى فظلت مطبخاً وبقي الأب فيها.

لم يع أحد حينئذ أن الأب قد سكن لوحدته، فرفض بشدة الانتقال معهم إلى الغرفة الجديدة.

www.alkottob.com

أثار رفضه دهشة جميعهم فلم ينس أحد طموحه الدائم إلى النوم في الغرفة التي تنام فيها زوجته. وها هي زوجته تبتعد عنه لتسكن منزلاً آخر وتناديه بنفسها ليسكن معها فيرفض ذلك.

جاءت عائشة خصيصاً كي تقنعه، قالت:

-أنت مريض يا أبي وبقاؤك في هذه الغرفة بعيداً عن الأسرة أمر مقلق. فإذا ما احتجت إلى شيء وناديت قد لا يسمعك أحد. أما في الغرفة الجديدة فستكون قريباً من جميعهم وكلهم سيكون بخدمتك.

فرد الأب بصوت ضعيف:

-لا يهم. أفضل البقاء هنا!

-إذا كان ذلك لا يهمك، فهو يهمنا. ثم إن الشتاء على الأبواب، والبرد سيزيد من حالك سوءاً، أما هناك فستنام بجانب المدفأة، أرجوك لا تعاندني ولا تخذلني!

-لا تتعبي نفسك يا عائشة، فلن يختلف الشتاء القادم عما سبقه. فقد عشت عمري في هذه الغرفة ولا أريد أن أتركها في آخره.

فتدخلت الأم:

-فكر على الأقل يا أبا قاسم بما سيقال عنا، رجل مريض يرقد على فراش المرض وحيداً في غرفة طينية، في حين تعيش زوجتك وبناتك في غرفة باطون جديدة. أي عار سيلحق بنا إذا انهارت هذه الغرفة وأنت فيها!

حدق الأب في نقطة غير محددة وقال دون أن يرفع نظره إليها:

-ما سيقال هو كل ما يهمك. أما أنا فلا يهمني شيء.

فقالت الأم:

-وأنت أيضاً تهمنا.

-أنا لا أهم أحداً. سأبقى هنا.

كان من الواضح لعائشة وللأم أن أي شيء لن يرده عن قراره. فانصاعتا وخرجتا. وعادت عائشة تعتريها مشاعر القلق برغم أنها أوصت الأم والأخوات كثيراً بأن يبدين اهتماماً أكبر به.

www.alkottob.com

17

لم تكن مريم فيما بعد تؤمن بالغيبيات. إذ باتت تميل إلى تفسير الظواهر بشكل علمي ومنطقي، ومع ذلك لم يقو علمها ولا منطقها على تفسير ذلك الإحساس الذي انتابها قبل سنين طويلة:

حدث ذلك بعد حوالي الشهرين من انتقالهم إلى المنزل الجديد في أحد الأيام الأخيرة من شهر تشرين الثاني.

استيقظت في ذلك اليوم مبكراً جداً، حتى قبل الأم التي تستيقظ عادة قبل جميعهم. أيقظتها فكرة طرقت رأسها كالمطرقة، ففتحت عينيها ولم تفكر في محاولة النوم من جديد ثم نهضت من الفراش بسرعة واتجهت نحو الباب. وفي الخارج أوقفها الضباب الكثير المنتشر.

كانت الأشياء والأحجام وكأنها ساحت في الضباب، ففقدت نهاياتها الحادة وأصبحت كظلال لأشكال هلامية يصنعها ضوء رمادي. نظرت إلى الشرق ورأت أطراف الشمس مازالت محبوسة في مكان اتصال الأفق بالهضاب، وبدت كتلة مشعثة تبعث بأشعة باهتة مطفأة. أبطأت من سرعتها لأن الرؤية لم تكن واضحة، وسارت باتجاه المطبخ. دخلت وأشعلت النور فرأت أباها مايزال نائماً في فراشه، اقتربت منه وبداخلها ذعر لا تدرك سببه. نادته، فلم يجب، رفعت الغطاء عنه فظهر وجهه ساكناً دون أية مشاعر. لم يكن حزيناً ولا سعيداً، كان مغمض العينين نائماً. فهزت كتفه:

-أبي، استيقظ.

ولم يجبها.

كانت إحدى يديه تحت رأسه والأخرى دسها تحت المخدة، فسحبتها وشعرت ببرودتها حين لمستها. وإذا بها قابضة على السكين... فعلا صوتها قليلاً وهي تهز يده راجية:

-استيقظ يا أبي.

بينما استمر أبوها غارقاً في صمته.

تركت يده فسقطت فوراً إلى جانبه ممسكة بالسكين. أحست مريم أن كل ما بداخلها يسوح وينهار متكاثفاً في قدميها، فتثقلان ولا تقوى على تحريكهما. ويبقى الجزء العلوي من جسمها فارغاً كالكيس سيلتوي قريباً ويتساقط إلى جانب القدمين.

www.alkottob.com

كان أبوها مغمض العينين مستكيناً يحمل سكيناً في يده وإلى جانب فراشه وضعت تنكة حديدية مملوءة بالتراب، انتابها شعور بالقرف من ذاتها ومن العالم والناس. واعتقدت هنيهة أنها فهمت لماذا كان أبوها يكثر من البصاق.

وبقي أمل ما بداخلها يتحدى حزناً يطير نحوها ليخترقها كالرصاص. جرت قدميها بتثاقل وخرجت من الغرفة، كانت حركتها مربكة، فتعثرت بكل ما في طريقها إلى غرفتهم. وهناك اتجهت إلى حيث تنام الأم وفاطمة، وشرعت توقظهما بتوتر:

-أمي. فاطمة. أمي.

تحركت فاطمة وهي تتذمر:

-ما بك؟

-أبي يأبى الاستيقاظ.

تنحنحت الأم وهمت بالنهوض. أما فاطمة فسألت وهي تدلك عينيها:

-ولماذا أيقظته في ساعة مبكرة كهذه؟

ثم فتحت عينيها، ونظرت بقلق فقالت مريم:

-حاولت إيقاظه مراراً إلا أنه لم يجبني.

قفزت فاطمة من فراشها وركضت، ولحقتها الأم، وبقيت مريم واقفة في الباب تراقب خيال أمها وفاطمة اللتين غابتا في غيمة الضباب. وراحت تنصت إلى أصوات ستسمعها، قد تطفئ النار فيها أو قد تشعلها. ولم تمض دقيقتان أو ثلاث حتى سمعت صراخ فاطمة والأم.

أخفت مريم وجهها بيديها وتساقطت على الأرض:

-لقد مات. مات أبي.

واخترق كل الرصاص قلبها فبكت بعنف.

ها إن الموت قد اقتحم وحدته أخيراً. لصاً قفز من النافذة ووجد ما يسرق. ولم تستطع سكين الأب المثلومة أن تردعه.

لقد مات الأب!

وعلا صوت البكاء والصراخ.

بكت مريم بأسى أباً لم تذق أبداً طعم انتظار عودته من العمل...

www.alkottob.com

بكت مريم بأسى أباً لا تذكر أنه حاول مرة أن يضمها إلى صدره، فعاندته بدلع طفولي...

بكت بأسى أباً لا تذكر أنه في يوم من أيام طفولتها جلب لها حلوى...

بكت مريم بعنف عجوزاً بائساً كان أباها ومات وحيداً.

في أي لحظة قد مات؟ ومتى سمعت آخر أنين له؟ حاولت أن تتذكر لتجلد نفسها لأنها بقيت بعيدة عنه في تلك اللحظة.

تركته وحيداً ليسلم أنفاسه التي لم يملك غيرها للص كان يخافه دائماً. وخيل إليها أن الضباب هو روح أبيها وقد تحررت من قيودها وذابت في قطرات ماء صغيرة لا متناهية في الفضاء.

لقد مات الأب!

وتجمع الناس في بيتهم.

بكت مريم بمرارة. وتبخرت روح أبيها. انقشع الضباب.

صار بيتهم يعج بالناس عند حلول الظهيرة، حيث جهز الجثمان وحمل الأب في تابوت على الأكتاف.

وأجهشت مريم في بكاء عال حين سمعت من داخلها صوت أبيها الذليل وهو يرجوهم أن يطلقوا سراحه. ثم يهدأ رجاؤه وقتاً قصيراً إلا أن أنينه يبقى مستمراً.

بكت مريم وأغمضت عينيها حين رأت في الأفق قبراً ترتعش الحياة فيه بينما يفتت السكون دبيب جنازة يخفيها الضباب.

سيهيلون التراب عليه... فلن تسمع أنينه من بعد.

سيهيلون التراب عليه ويذهبون، وسينصاع لوحدة أبدية في حفرة داخل الأرض. ولن يحتاج لتتكة مملوءة بالتراب. لأن التراب سيملأ فمه.

بكت مريم بأسى وحرقة عجوزاً كان أباها وعاش معذباً وحيداً في قبر طيني. واستكان هادئاً لا فرحاً ولا حزيناً في حفرة في الأرض.

وحاولت بقوة أن تصدق ماقيل فيما بعد بأن تابوته حين تعدى عتبة باب الباحة الخارجي، أصبح خفيفاً جداً وراح يسابق حامليه إلى الأمام.

www.alkottob.com

18

مر الشتاء ببرده وما انهارت الغرف الطينية. ولم يقم قاسم بردمها كما وعد. وبقيت تلك الغرفتان قائمتين سنين عديدة تنظران بعيون كابية إلى حياة رتيبة تشيخ أيامها كل صباح.

في الصيف تخرجت شماء من الجامعة محدثة بذلك بهجة كبيرة في البيت الذي بات كئيباً خاصة بعد وفاة الأب.

وبعد فترة قصيرة من التخرج لاحظت مريم تهامسات مكثفة بين شماء وعائشة، فدارت الشكوك بخلدها: هل ستقوم شماء بتنظيم عائشة أخيراً؟! استطرفت هذه الفكرة، وحاولت ألا تعير الأمر اهتماماً.

لكنها أخطأت التقدير في هذه المرة أيضاً، فبعد ذلك بقليل تقدم أحد الشباب لخطبة شماء. وكان من الواضح جداً لمريم أن شماء ليست موافقة على الزواج منه وحسب، بل تكن له مشاعر معينة جعلتها تضطرب كثيراً حين حضر إلى بيتهم.

كان شاباً من أبناء القرية، لكنه كان يعيش ويعمل طبيباً في المدينة المجاورة.

حضر واستقبله قاسم والأم بوجود عائشة.

وبقيت شماء في المطبخ تُعنى بتحضير القهوة واختيار الفناجين المتشابهة، ولشدة ارتباكها لم تنتبه إلى أن القهوة بدأت تفور وتندلق وهي واقفة بجانبها لا تلاحظها، أما عائشة فقد جلست قليلاً مع قاسم والأم وشاركت في الحديث مع الشاب الخاطب، ثم خرجت إلى المطبخ تستعجل القهوة.

بعد مضي ساعة خرج الشاب الخاطب دون أن يلتقي شماء التي اعتكفت في المطبخ وبقيت جالسة في إحدى زواياه وغابت في أفكار كثيرة إلى أن دخلت عائشة والأم فقامت بسرعة وسألت:

-كيف سارت الأمور؟

ردت عائشة: -أنت تعلمين أن الأمر بالنسبة إلى قاسم عادي، إذا لم يكن له أية مصالح خاصة به. فتعامل ببرود ولم يبد عليه أنه سيبت في الأمر سريعاً، لذلك اقترحت أن نستشير العم إبراهيم.

فأكدت الأم:

www.alkottob.com

–هذا واجب، فقاسم وحيد وما من أب يقف معه في أمور كهذه. والعم إبراهيم وقف دائماً معنا في السراء والضراء، ومن العيب عدم استشارته. توترت شماء وتصاعد القلق في عينيها حين سمعت ذلك، فقالت عائشة:

–على كل حال هو شاب جيد وذكي، ثم إنه طبيب وأحواله المالية ليست سيئة، لذلك لا أعتقد بأن العم إبراهيم سيرفض. فلا تقلقي.

كلام عائشة طمأن شماء وأعاد إليها الحياة سريعاً.

في اليوم التالي توجهت الأم وعائشة وقاسم إلى بيت العم إبراهيم، وبعد أن شرحوا له الأمر. أخذ نفساً من نارجيلته مما جعل الماء في القارورة يضطرب وكأنه يغلي مُحدثاً قرقعة عالية طغت على الصمت الذي ساد. ثم نفث الدخان من فمه فشكل غيمة صغيرة أخفت معالم الوجوه الصامتة هنيهة. ووجه سؤاله إلى قاسم:

–من أي عشيرة قلت؟

فذكر قاسم للمرة الثانية اسم عشيرة الشاب.

قال العم وقد أضفى على نبرته وقاراً:

–لا يخفى على أحد أنها عشيرة صغيرة ليست ذات أصل يذكر، جاء أجدادنا إلى القرية من دول عربية أخرى بعد أن شردوا من بلادهم. وإنه لمن العار علينا نحن أبناء العشيرة الكبرى في القرية أن نزوج ابنتنا لأحد من أبنائهم. وبالذات حين تكون هذه الفتاة شماء الحاصلة على الشهادة الجامعية. صحيح أنها من عائلة فقيرة، لكنها ابنة عشيرة ذات أصل.

وصمت قليلاً ثم أردف: –فلننتظر بعض الوقت، لابد أن يتقدم شاب من أقاربها يكون أهلاً لها.

كان كلام العم واضحاً ومحدداً فاكتفى به وأخذ نفساً آخر من نارجيلته وهو يشعر بأنه قد بت في الأمر برأي حكيم مؤكداً من جديد وفاءه لأصله ولموقعه كأحد وجهاء العشيرة.

لم يناقشه قاسم، فالأمر لا يعنيه كثيراً، وسارعت الأم لتأييده. أما عائشة فقد أربكها موقفه، وصمتت كونها لم تتعود أن تخالفه بشيء.

استقبلتهم شماء في الباب. واستعجلت عائشة لسرد ما جرى. وما إن علمت بموقف العم حتى ثارت بعصبية:

www.alkottob.com

–أي كلام سخيف هذا. يقرأ في اليوم كتابين وبرغم ذلك لم يحدث أي تطور على فكره فتبقى العشيرة والأصل وكل هذه المفاهيم البالية هي التي تحركه! فليعلم أنني لن أتزوج أحداً من أبناء عشيرته تلك، وليذهب معها إلى الجحيم. ثم إنني اتفقت مع ذلك الشاب ولن أتزوج غيره، فهو شاب مثقف ومهذب ويحترمني وهذا كل ما يهمني.

لم تفهم الأم الكثير من كلام شماء، لكنها وبحركة سريعة قامت من مكانها ووضعت يدها على فم شماء قائلة:

–اخرسي ولا تجرئي على إعادة هذا الكلام.

وكررت جملة شماء باستنكار –"اتفقت معه"! هل تريدين الفضيحة لنا، وأنت التي نعلق عليك كل آمالنا؟ سيلحقنا العار بسببك، بعد أن عشنا الحياة مستورين.

لكن شماء أزاحت يدها بحدة وقالت:

–العار بالنسبة إليّ هو أن أتزوج شخصاً لمجرد أنه ابن عشيرتي.

هذا لن يحدث أبداً. قولي أنت، –ووجهت كلامها إلى الأم:

–ماذا قدمت لك العشيرة حين كنت تجوعين، وحين سافر قاسم، وحين وحين؟!

فردت الأم بعصبية:

–أنت جننت. كنت أظن أن الجامعة ستزيدك عقلاً وفهماً لكنها وكما ظهر أنستك القيم والأخلاق.

–هذه قيم متخلفة ويشرفني أن أنساها.

لم تكن للكلمات التي تستعملها شماء في حديثها وجود في قاموس الأم، لكنها فهمت من مجمل الحديث أن ابنتها ونتيجة التعليم قد أصبحت على قدر من الجرأة قد يلحق بها العار. فلطمت وجهها بيدها وهي تقول:

–لو كنت أعلم بأن هذا سيحدث لزوجناك بعد المدرسة مباشرة.

نظرت إليها شماء والدموع تترقرق في عينيها ثم أخفت وجهها وراحت تبكي.

تدخلت عائشة:

–اهدئي يا شماء، فلن يجبرك أحد على الزواج من شخص لا تريدينه.

واكتفت بذلك، فلم يكن لديها شيء آخر تقوله وقتذاك.

بعد عدة أيام تقدم لخطبة شماء أحد أبناء عمها.

www.alkottob.com

جاء بصحبة أبيه والعم إبراهيم. وحين دخل قاسم ليستشيرها رفضت شماء بإصرار. فخرج. ثم أتى العم إبراهيم بنفسه كي يقنعها وقال:

–تعلمين يا شماء أنني أعتبرك بنتاً لي، ومستقبلك يهمني مثلما يهم الأب مستقبل ابنته. وابن عمك شاب جيد ومتعلم ويريدك. وأنا واثق بأنك ستعيشين معه حياة هادئة وطيبة، وستكونين على مقربة من أمك وإخواتك فلا تتسرعي بالرفض.

فردت شماء محاولة أن تخفي حنقها:

–وأنا أيضاً أكن لك الاحترام والمودة يا عمي. لكنني –وترددت– عدلت عن فكرة الزواج كلها.

فضحك العم وقال:

–هذا ليس صحيحاً. على كل حال فكري بالأمر واعتبريه طلباً خاصاً لي عندك.

وخرج.

وبقيت شماء متوترة تتحاشى الحديث مع الأم التي بدا واضحاً ميلها إلى موقف العم.

سارعت عائشة إلى بيت أهلها حين علمت بالأمر. وما أن دخلت حتى راحت الأم تحدثها مستغلة الفرصة كي تسمع شماء رأيها:

–حضر العم إبراهيم بنفسه خاطباً، وهو رجل حكيم ذو هيبة، يشهد له بذلك كل من في القرية. ورأيه يجب أن يكون فوق كل رأي. خاصة وأن ما قاله عين العقل، فابن عمها شاب متعلم وطيب وإذا تزوجته فستبقى قريبة منا، ثم إنه من ثوبها –وقصدت من مستواها– فهو يعرفنا ويعرف أي ظروف نعيش. ولن يجرؤ في يوم من الأيام أن يذلها بكلمة أو يسيء إليها كالغريب فأهلها في النهاية أهله. اشرحي لها يا عائشة فهي تأخذ برأيك.

فأسرعت عائشة بإجابة جاهزة:

–أتظنين أنه يبغي الزواج منها حباً بها أو تشرفاً بنا؟ تكونين مخطئة إذا ظننت ذلك، فمنذ متى وبيوت الأعمام يعتبروننا بمستواهم كي يخطبوا لأحد أبنائهم شماء. لقد كانوا ينظرون إلينا دائماً نظرة قرف وتعال. حتى إنهم لم يفكروا ولو مرة خلال السنوات الماضية بإقامة علاقة معنا. والآن وبعد أن تخرجت شماء وأصبح من الواضح أنها ستحصل قريباً على وظيفة، رأوا فيها كنزاً هم أحق من الغريب فيه. وأستطيع أن أقسم بأنها لو لم تتعلم لما تحرك أحد منهم لخطبتها لأن الزواج

www.alkottob.com

منها حينذاك لن يشرفه، فأهلها فقراء وأبوها عاش عاجزاً وأخوها ليس بالعاقل والمسؤول.

ثم تنهدت بأسى وكأنها نكأت وجعاً بداخلها، واستطردت.

–ولو اعتبرت أن كل ذلك أكيد، وأن ابن عمها سيتخلى عن مرتبها، فببساطة وضعه المالي لن يسمح له بذلك، فهو معلم مدرسة وأجره الشهري لن يكفي لإعالة أسرة. أما ذلك الشاب فهو طبيب ويجني من النقود ما يغنيه عن مرتب شماء، وستعيش معه معززة مكرمة.

تألقت عينا شماء وشع البريق فيهما بعد أن أطفأه طيف من الحزن. فكل ما قالته عائشة صحيح وقوي لن تستطيع الأم دحضه. وصمتوا جميعاً.

ثم سألت الأم بقلق:

–وكيف سنقنع العم إبراهيم؟

ردت عائشة بيأس:

–إذا اقتنع سيكون ذلك جيداً. وإذا لم يقتنع فلا حول ولا قوة.

قالت ذلك بأسى وهي تدرك بأنه ما من خيار آخر أمامهم.

في الصباح الذي تلاه لم تسأل الأم ولم تبد أي احتجاج حين جهزت شماء نفسها وانطلقت للمدينة القريبة. غابت حتى الظهيرة وعادت. ولاحظت مريم السعادة الكبيرة على وجه أختها. وفرحت لذلك، فقد كانت متضامنة معها قلباً وقالباً، لكنها لا تملك القدرة على فعل شيء واكتفت بمراقبة الأمور وتطوراتها وبداخلها أمنية صادقة أن تنتصر شماء وينتصر حبها.

وسرعان ما صرحت شماء لمريم وفاطمة أن الأمور في هذه الليلة قد تأخذ مجرى آخر. فانتظرت مريم المساء ولم يطرق بابهم ولم يأت أحد لزيارتهم. ما الذي سيحدث؟ لم تفهم ولم تدرك الأمر إلا عندما حضر قاسم في وقت متأخر من المساء وتبين آنئذ أن شماء كانت تنتظره بقلق. جلس فترة قصيرة صامتاً ثم قال:

–كنت الليلة بصحبته، إنه في الحقيقة شاب لطيف وأعجبني.

ازداد البريق في عيني شماء التي كانت تتفرسه لكنها تخجل من إبداء الأسئلة، فراحت تنصت إلى كلامه بتشوق ظاهر. واستمر قاسم:

جاءني بعد الظهر، وقال إنه يود الحديث معي في مكان هادئ، فاتفقنا أن نلتقي مساء.. والتقينا..

www.alkottob.com

ثم استمر بعد أن أخذ صوته نبرة فوقية:

-صحيح أنه من عشيرة ليست ذات أصل كعشيرتنا، لكنه جيد، إنه على الأقل أفضل من ابن عمك، فذاك ثقيل الظل متعال لا أحبه، أما هذا فعلى ما يبدو متواضع، ثم إنه -وابتسم- يقدر الكيف ورفقته ليست بالمملة.

كانت الأم التي قامت من نومها تستمع إليه باهتمام، لكنها راحت تهز رأسها تعليقاً على كلامه الأخير، ولم يعرها قاسم بالاً فاستمر يصف السهرة ويروي الطرائف التي حدثت خلالها. وفي نهاية حديثه قال:

-على كل حال نحن اتفقنا منذ البداية وسيحضر بعد يومين هو ورجال من أهله إلى هنا للبت في الموضوع بشكل نهائي. وسأدعو أنا بعض الرجال من الأقارب كي يقوموا باستقبالهم.

وهمّ بالخروج لكنه توقف قليلاً وقال:

-أما عمي إبراهيم فلن أدعوه. وظلت شماء تحدق فيه بفرح طفولي إلى أن خرج.

ثم استلقت في الفراش وحلمت طويلاً وكانت جملة قاسم الأخيرة كافية لتجعلها تغمض عينيها براحة وسعادة.

حسم الأمر بعد يومين، فقد حضر الرجال من طرف الشاب الخاطب وكان معهم المأذون، ووافقوا على كل الشروط بما فيها أن يكون مرتب شماء حين توظفها لأهلها. وعقد قرانها في تلك الليلة.

أما العم إبراهيم فقد ثارت ثائرته حين علم بالأمر. اعتبر موقفهم إهانة صارخة وعدم احترام له، فهم يلجؤون إليه ويأخذون برأيه حين يمس الأمر مشكلة تافهة مع قاسم تضطره لأن يتحمل الإهانة منه بسببهم. أما في موقف جدي كهذا، فلم يقيموا له أي اعتبار، وتجاوزوه ضاربين عرض الحائط برأيه وموقعه الاجتماعي. وأعلن مقاطعته الأبدية لهم.

بدأ القلق يعتري مريم حين اقترب المساء ولم تعد فاطمة من جامعتها. فخرجت نحو باب الباحة، فتحته ونظرت في الشارع لعلها تراها قادمة، ثم أغلقته حين خاب أملها. وعادت لتجلس في الغرفة وتفكر.

وفي اللحظة التي غفلت فيها عن الانتظار دخلت فاطمة ففوجئت مريم وسألت:

-كيف دخلت ولم أرك، فأنا منذ ساعة أترقب عودتك!

www.alkottob.com

ردت فاطمة مازحة:

–دخلت مشياً على الأقدام، ولم تريني لأنك كنت غائبة في عالم آخر.

–قلقت كثيراً، وظننت أن شيئاً ما قد حدث، هيا خبريني، كيف مضى اليوم؟

–سأحدثك وأنت تسخنين لي الأكل، فأنا أتضور جوعاً.

اتجهتا إلى المطبخ وراحت مريم تسخن لأختها الأكل وقد فهمت من مزاجها الرائق أن لديها أخباراً جيدة، وبدأت فاطمة الحديث بانفعال شديد:

–هل تتخيلين أن إدارة الجامعة رضخت أخيراً، ووافقت على إعادة جميع الطلاب المفصولين إلى مقاعدهم الدراسية؟

–حقاً! كيف حدث ذلك؟

–هو في الحقيقة أمر متوقع، فلو استمر الاعتصام حتى يوم غد لزاد بذلك على الأسبوع ولهدد الجامعة وعرض شهادتها لعدم الاعتراف من قبل الدول والجامعات الأخرى، لذلك اضطرت الإدارة اليوم، وبعد أن شارك جميع طلاب الجامعة في الاعتصام، اضطرت للموافقة على لقاء وفد طلابي وبحث مطالبه. وقد تشكل الوفد سريعاً وكان أسعد على رأسه، وقابلوا الإدارة وفرضوا عليها كل الشروط. نعم فقد كنا بموقع فرض الشروط، فبحركة من يد أسعد كانت جموع الطلاب تقف، وبحركة أخرى كانت تجلس، فوافقوا على إعادة المفصولين ووافقوا أيضاً على تشكيل اتحاد طلبة علني. هل تتصورين ذلك! إنه النصر بعينه.

داعبت كلمة النصر جسد مريم مدغدغة إياه فاقشعر. ووقفت. ولم تدرك في اللحظة الأولى لماذا وقفت، لكنها سرعان ما توجهت إلى قدر الطعام التي باتت تغلي، فسكبت طبق ملوخية وجلست تأكل مع فاطمة وتستمع إلى حديثها غير المنظم، فكانت فاطمة تروي أحياناً وقائع لقاء الوفد الطلابي بالإدارة، ثم تتذكر فجأة شعاراً حماسياً أطلقه أحدهم وتكرره بحماسة شديدة ويؤدي بها ذلك لتذكر مقاطع من خطبة أسعد في الصباح، ثم تروي طرفة حدثت في أثناء ذلك مع صديقتها وتضحك من أعماقها. وتضحك معها مريم.

كانت فاطمة لوزية العينين، هادئة نادراً ما تثور. ذات روح مرحة.

شاركت مريم فاطمة انفعالاتها بمتعة شديدة وبشيء من الحسد:

تمنت لو شاركتها الأحداث نفسها، لكنها استمرت بالإنصات إليها وبترقب كل حركة وكل بداية جملة قد تنم على خبر جديد، ولاحظت في أثناء ذلك بل وخلال الإسبوع المنصرم كله أن فاطمة لا تتحدث بانفعال عن الاعتصام وحسب،

www.alkottob.com

وإنما عن أسعد نفسه، ذلك الطالب الثوري الذي قاد الاعتصام بشجاعة شديدة، كانت عيناها تتوقدان وهي تصف حركاته وكلامه ومواقفه، لكن مريم لم تسألها عن شيء فقد خافت أن يبدو ذلك سخيفاً في ظل ما يجري من أحداث عظيمة.

وفي غمرة انفعالها بالحديث دخلت الأم المطبخ وقالت وهي تصطنع الغضب موجهة كلامها في البداية إلى مريم:

-بعد المدرسة تذهبين لزيارة شماء، وحين تعودين تضيعين باقي الوقت في الثرثرة الأحرى بك يا مريم أن تمضي هذا الوقت في دراستك. ثم أنت يا فاطمة، ألا تدركين أن أختك في سنتها الأخيرة وامتحاناتها على الأبواب وبدل أن تساعديها على الدراسة تقومين بإعاقتها عن ذلك. أي أمر مهم تثرثران به لا أدري.

ردت فاطمة: معك حق يا أمي. سنقوم الآن ونباشر بالدراسة فلا تقلقي.

بعد أن خرجت الأم سارعت فاطمة بالسؤال:

-هل قمت اليوم بزيارة شماء؟

أجابت مريم بلهجة تنم على عدم رضا:

-نعم

وصمتت فاستغربت فاطمة:

-وماذا بعد. هل حدثتها عن موضوع سفرك؟

-حدثتها؟

-ما لك تجيبين هكذا؟ ألم توافق؟

-لم توافق ولم ترفض قالت إنها لا تحبذ مسألة سفري إلى الخارج من أجل الدراسة، وتفضل أن أكمل تحصيلي الجامعي هنا، لأن سفري وحيدة إلى بلد أجنبي ليس بالأمر السهل، خاصة وأنني سأضطر للبقاء هناك طوال مدة الدراسة.

-وماذا ستفعلين إذا؟

-ألححت عليها كثيراً وقلت أنني أود دراسة الهندسة وسيكون من الصعب أن أحصل على منحة هنا لدراستها، فوعدتني وبعد حديث طويل أن تستشير عائشة.

صمتت مدة قصيرة لم تعلق فاطمة خلالها بشيء فاستمرت:

-على الأغلب أن عائشة سترفض، وإذا وافقت فسيكون الوقت قد ضاع في المشاورات، وأغلق باب تقديم الطلبات للدراسة.

www.alkottob.com

فطمأنتها فاطمة:

–لا تدعي هذا الموضوع يقلقك، فزوج شماء قادر في أي وقت أن يتدارك الأمر.

صمتت مريم وبداخلها انتظار قلق ليوم الجمعة حيث ستلتقي عائشة بشماء في بيتهم.

وراحت فاطمة تحدثها من جديد عن الاعتصام وعن تفاصيل أخرى نسيتها من قبل فشدت مريم إليها. وصمتت فوراً عندما سمعت صوت الأم يؤنبها في الخارج

كان للقاء الأطفال في يوم الجمعة ضجيجه العالي. فأخذوا باللعب والضحك والشجار والصراخ في آن واحد. حتى طفلا شماء اللذان تميزا من أطفال قاسم وعائشة بسلوكهما ولبسهما، كانا في بيت الجد يتحرران من كل القوانين والقيود التي تحاول شماء وزوجها أن يفرضاها عليهما في البيت، وراحا يمارسان اللعب مع باقي الأطفال بطريقة فوضوية متجاوزين تهديد ورجاء شماء.

وبقيت مريم قلقة خلال ذلك تنتظر أن تتحدث شماء مع عائشة بأمرها. وتأكّد لها حين بدأت بمناقشة الموضوع أن قلقها كان في مكانه. فقد استثقلت عائشة مسألة سفر مريم للأسباب التي ذكرتها شماء نفسها ولكنها وبعد أن فكرت قليلاً – وعلى غير عادتها– تراجعت عن موقفها، وقالت وهي تحدق إلى نقطة أمامها وكأنها تحدث نفسها:

– إن فاطمة ستنهي جامعتها في العام القادم، ولا بد أن تتزوج وعندئذ ستبقى أمي ومريم وحيدتين في بيت قاسم.

توقفت فترة ثم أكملت:

– فلتسافر، بسفرها ستحل العقدة، ستبقى أمي وحيدة وسيكون من السهل علينا الاعتناء بها. وقد تعيش عند إحدانا أو عند كل واحدة منا فترة من الزمن.

وكأن عائشة فجأة وجدت حلاً سريعاً يقطع صلتها بهذا البيت، كانت تريد أن يكون سفر مريم هو نقطة النهاية أو على الأقل الوقوف على النهاية للحياة البائسة التي عاشتها هي وأخواتها في هذا البيت

استمعت إليها شماء بدهشة: إن ما تقوله منطقي، لكنه ذو منطق قاس، فقرارهن محكوم بواقع مر لئيم يدفعهن إلى الهروب والتخلص منه بأي شكل، حتى

www.alkottob.com

لو كان سفر مريم وحيدة إلى دولة غريبة. شد ما آلمتها الواقعية المجردة التي تتحدث بها عائشة. وأطرقت تفكر. عادت عائشة تؤكد:

– إن بقاءها هنا يعني عيشها على الأقل أربع سنين قادمة في بيت قاسم وأنت تدركين معنى ذلك. ثم إنها فتاة جريئة ولا خوف عليها.

فقالت شماء:

– على كل حال رأينا لا يعني شيئاً، فيجب أن نقدم الطلب أولاً ومن ثم تكون قالت ذلك وبداخلها أمنية عميقة أن يتم رفض الطلب.

قدمت مريم بعد عدة أيام طلباً للدراسة في الاتحاد السوفييتي.

عادت في ذلك اليوم من المدينة المجاورة دون أن تلاحظ مسافة الطريق فقد طار فكرها مع الطلب ووصل البلاد البعيدة حين وصلت هي إلى بيتها. وبعد وصولها بقليل حضر شخص اكفهرت حين رأته، فقد كانت تعرفه جيداً لكثرة تردده عليهم من قبل. فزيارته عادة كانت تجر وراءها مشاكل عديدة. كان قريبهم الذي كفل قاسماً في البنك حين حصل على القرض لبناء البيت.

لم يكن قاسم موجوداً ذلك اليوم في البيت، ورفضت زوجته الخروج لاستقبال الرجل مدعية أنها مشغولة بأحد أطفالها الصغار، فاضطرت الأم من جديد لاستقباله.

ما أن جلس حتى راح يفرغ حنقه وغضبه:

– تعبت يا أم قاسم من سلوك ابنك هذا. فها قد مرت ثلاث سنين على استلامه القرض وهو ينتظم مرة ويتخلف عشراً عن تسديد الأقساط. إني لعنت اللحظة التي وافقت فيها على كفالته مئات المرات ليتني لم أفعل، ليتني أخذت بنصيحة من حولي. كل الناس حذروني من أن قاسماً سيزجني في مآزق كثيرة، لكني تجاهلت النصائح وأردت لكرم أخلاقي أن أقوم بعمل طيب –وعلا صوته– والنتيجة أو المكافأة على هذا العمل الطيب هو تخلفه الدائم عن تسديد الأقساط. ماذا ينتظر؟! هل يريد أن أسدد القرض عنه؟

طأطأت الأم رأسها وقالت بأسى:

– لا ليس هذا ما يريده. لا بد أن لديه أسباباً قوية للتخلف.

كانت الأم تدرك أن قاسماً لا يقصد بسلوكه الإساءة لهذا الشخص، وإنما يقصد مرتب شماء، فراح يتخلف عن تسديد الأقساط منذ أن بدأت شماء باستلام

www.alkottob.com

مرتب.

رد الرجل بغضب:

– ما كان يجب عليه أن يقدم للحصول على قرض إذا كان لديه أسباب قوية للتخلف عن دفع الأقساط. وإذا كان يعتبرني ممن يمكن النصب والتحايل عليهم فليعلم أن هذه المرة ستكون الأخيرة. إذ توجهت أمس إلى محام واستشرته، فقال لي إنه من الممكن في هذه الحالات أن يقوم البنك بمصادرة البيت الذي بني.

ارتعبت الأم:

– لا يجوز ذلك يا أبا أحمد. صحيح أن قاسماً قد تخلف مراراً عن تسديد الأقساط مما عرضك لمشاكل، لكن حقك كان يصلك دائماً، وقد حضرت بنفسي مرات كثيرة ودفعت لك ما خصم من مرتبك.

فتنحنح الرجل وقال:

– نعم. لقد حصل ذلك. لكنني لا أريد أن أمضي السنوات القادمة في حالة توتر دائمة. فالبنك لا يميز الدائن من الكفيل. ويبعثون لي الشرطة حين يتخلف قاسم قبل أن يبعثوها إليه. وذاك يحرجني كثيراً. لا. لا أريد الاستمرار على هذه الحال. يجب أن يكون هناك حل نهائي.

– هدئ من روعك يا أبا أحمد ولا تطور الأمور بهذا الشكل، فنحن في النهاية أهل وأقارب. وأعدك بأن نجد حلاً نهائياً للمشكلة.

– وعدت بذلك مرات عديدة ولم تحل.

–في هذه المرة ستحل

– على كل حال، القسط اليوم قد خصم من مرتبي. سأنتظر يومين كي يرده لي.

انقلي له ذلك، وانقلي له أيضاً أنه إذا لم يكف عن تعامله هذا فستسير الأمور على غير ما يتوقع.

وهم بالخروج فاستوقفته الأم لشرب القهوة كي ترطب الجو قليلاً بعد أن أرعبتها تهديداته لكنه رفض وخرج تاركاً وراءه رياحاً تهب من كل الجهات في رأس الأم فلا تستطيع الهدوء والجلوس.

فسألتها مريم:

www.alkottob.com

– هل تخلف قاسم من جديد عن تسديد القسط؟

ردت الأم بغضب:

– وماذا يمكن أن ننتظر من قاسم غير ذلك؟

– لن يهدأ باله إلا إذا قامت شماء بتسديد الأقساط شهرياً بنفسها. وسيكون أكثر سعادة لو تعطيه باقي المرتب كي يبذّره على نفسه. ولنمت نحن جوعاً.

نظرت إليها الأم وصمتت. فلم تستطع أن تدافع عن ابنها أو تبرر سلوكه. فما قالته مريم هو الحقيقة بعينها أثبتها قاسم بجدارة في الفترة الماضية.

باتت الأم تروح وتجيء في انتظار قاسم الذي يختفي عادة من البيت في أيام كهذه، وتعتكف زوجته في بيتها كي لا تواجه الأم. لكن قاسماً في هذا اليوم لم يتأخر وعاد بعد الظهر.

واجهته الأم في البداية بوجه غاضب وراحت فوراً تشاجره بكلام فوضوي لا تستطيع السيطرة عليه، فتكيل الشتائم مرة ومرة أخرى تعاتبه وهي تبكي وتتذمر من سوء حالها، فلولا مرتب شماء لتضورت جوعاً. فهم قاسم أن رده يجب أن يكون ذكياً وهادئاً لأن ثورته ستصعد الموقف فقال:

– أنت محقة في كل ما تقولين يا أمي. لكنني صدقاً لا أعرف ماذا أفعل، فالعمل يسير بشكل سيء ولا أستطيع أن أحصل على ما يكفي من النقود لتسديد جميع التزاماتي، فإذا تأخرت قليلاً عن دفع أجور العمال هددوني بالذهاب للشرطة وسجني، وقد فعل أحدهم ذلك قبل يومين، وكنت على وشك دخول السجن، لكنني أخفيت الأمر عنك كي لا تقلقي، وقمت بحل المشكلة سريعاً– واسترق نظرة لأمه كي يتيقن من ردة فعلها، وكانت قد شهقت وخبطت بيدها على صدرها.

ثم استمر بعد أن تنهد:

– ومن جانب آخر أسرتي كبيرة وما أجني من نقود لا يكفي لإشباعها إنني أجد نفسي في ورطة. التزامات من كل جانب. وأحس أنني سأتقطع في العمل ومع ذلك لا أستطيع أن أفي بكل شيء.

ثم تنهد مرة أخرى وأردف:

– لا أدري ما العمل. لا أدري. سأحاول اقتراض المبلغ من أحدهم لأعيده بدل القسط.

www.alkottob.com

وصمت قليلاً ثم أضاف: – خلال هذين اليومين يجب أن أحل المشكلة. فلا تقلقي.

اعترت الأم مشاعر مختلفة: أتتركه يبحث عن أحد يستدين منه المبلغ ليحل مشاكله بنفسه أم تساعده وتعطيه المبلغ، فإذا لم تقف هي إلى جانب ابنها في محنته فمن سيقوم بذلك. لكن هذا يعني تقشفهم من جديد خلال الشهر.

لم تفكر الأم طويلاً وقالت بحزن:

– لا تبحث عن أحد يا قاسم، سأعطيك المبلغ أنا، فقد سلمتني شماء مرتبها منذ أيام.

أخفى قاسم ابتسامته بأن وضع السيجارة في فمه مغطياً إياه بيده وقال:

– لكنني لا أريد أن تسوء حالكم بسببي.

فانطبعت على وجه الأم ابتسامة ساخرة:

– لا يهم. سنقتصد في هذا الشهر أيضاً. ثم إن كفيلك يهدد ويتوعد. وقامت لتجلب المبلغ قائلة وهي تعده له:

– أسرع وسلمه إياه ولا تتأخر لأن كل ما يحدث عيب وليس بالسلوك المحمود.

فأخذ قاسم النقود وقال بأنه سيعيدها في الصباح.

فقالت الأم:

– لتكن هذه هي المرة الأخيرة يا قاسم. لقد هددتني شماء بأن تتوقف عن التنازل عن مرتبها إذا بقيت على هذه الحال. فهي تعمل ولا تبقي شيئاً لنفسها مما تجني كي لا نموت جوعاً.

رد دون أن يلتفت نحوها وهو واقف في الباب:

–حسناً سأحاول أن تكون المرة الأخيرة.

وتوجه نحو بيته.

بقيت الأم جالسة في مكانها واضعة يدها على خدها تكرر كلمته بين الحين والآخر بأسى: "سأحاول".

قبيل المغرب عادت فاطمة من الجامعة. ولم تعر انتباهاً لاضطراب الأم ولم تستمع بتركيز إلى مريم وهي تروي لها فعلة قاسم الجديدة. كانت بدورها قلقة حزينة.

www.alkottob.com

فسألتها مريم:

– ما بك يا فاطمة؟

ردت بحزن شديد وهي توشك على البكاء:

– اعتقلوا أسعد.

فشهقت مريم: –كيف ذلك؟ ألم تقولي إنه اختفى واختبأ في بيت أحدهم بعد الاعتصام؟

– بلى، لكنهم وجدوه. واعتقلوا آخرين معه. لقد كانت موافقة الإدارة عبارة عن مسرحية امتصت بها غضب الطلاب، حتى المفصولين أعادتهم مؤقتاً ليقوموا بعد أن تهدأ الأمور بطردهم ثانية.

تنهدت مريم وسألت:

– وأسعد. متى وكيف وجدوه؟

– لا أعرف. لقد انزعجت كثيراً حين علمت بالخبر ولم أسأل عن التفاصيل وأوشكت على البكاء لكنها تماسكت وقامت باتجاه المطبخ.

– صممت مريم وقد دار بذهنها الكثير من الأسئلة حول علاقة فاطمة بأسعد لكنها لم تسأل عن شيء. فقد خافت في هذه المرة أن تثير أسئلتها شجى في نفس أختها. ثم عادت فاطمة وجلست كئيبة حزينة كأمها وعبثاً راحت تحاول القراءة في كتاب.

بقيت مريم تذكر ذلك المشهد سنين طويلة قادمة.

كان المساء قد التهم بقايا رؤية في الأفق غير آبه للضوء الأصفر الذي بات ينبعث من نافذتهم. جلست مريم في البداية صامتة. ثم أشعلت جهاز التلفاز لعلها تؤثر بذلك في مزاج أختها وأمها. تعالت في ذلك الوقت أغنية شجية تحكي عن الفراق ما أن سمعتها فاطمة حتى رمت الكتاب جانباً ودست بنفسها تحت الغطاء مخفية وجهها وراحت تبكي بأسى شديد.

قالت مريم لنفسها: فلتبكِ عساها تغسل شيئاً من حزنها. ولم تحاول إيقافها.

ظلت تبكي إلى أن سمع طرق على باب الباحة الخارجي.

خرجت مريم لترى من الطارق، ورأت من وراء السياج المنخفض عدداً من رجال الشرطة، فعادت سريعاً وأعلمت أمها. قالت الأم بقلق:

– لا بد أنهم قدموا في طلب قاسم. اذهبي وأخبريه

www.alkottob.com

– توجهت مريم إلى بيت قاسم، لكنه أبى الخروج وطلب من زوجته أن تعلمهم بأنه غير موجود في البيت. وحين فعلت زوجته ذلك دون فتح الباب قالوا لها إنهم لم يأتوا في طلب قاسم وطالبوا بفتح الباب.

اضطربت فاطمة كثيراً وقفزت من فراشها وهي تمسح دموعها.

– من أجل من إذن؟ قالت الأم.

- وطرق الباب من جديد.

- خرجت فاطمة وسألت عما يريدون فقالوا:

- افتحي الباب أولاً وسنعلمكم بما نريد.

فهمت فاطمة عندئذ أنهم جاؤوا من أجلها فذعرت وارتبكت وأصرت على عدم فتح الباب مصرحة أنها لا تستطيع ذلك لأنه ما من رجل في البيت. دار حوار قصير بينها وبين الشرطة، ثم ذهبوا بعد أن يئسوا من إقناعها. تنفست فاطمة الصعداء وعادت مع أمها ومريم إلى الغرفة، وبقيت مضطربة، لكنهم عادوا بعد حوالي ساعة وطرقوا الباب بشدة. انتفضت فاطمة في مكانها ولم تقم ومنعت أمها ومريم من القيام. فأعادوا طرق الباب، سمع حينها صوت أحد الرجال ينادي أم قاسم، فتوجهن نحو الباب وسألت فاطمة عما يريدون فقال الرجل:

–افتحي الباب يا أم قاسم. فأنا المختار ولن يحدث لكم شيء بوجودي، ففتحت الأم الباب. دخل أربعة رجال من الشرطة ورجلان بملابس مدنية ومختار العشيرة توجه أحد المدنيين بالسؤال إلى فاطمة:

– هل أنت فاطمة؟

ردت بالإيجاب بتوتر

فقال: – هلا سلمت جواز سفرك؟

ارتبكت فاطمة وقالت: –ضاع.

وتأكد لها أنهم رجال مخابرات

قال الرجل الآخر: –اسمعي يا فاطمة. من الأفضل أن تسلميه وإلا فستضطرينا لاتخاذ إجراءات ليست في صالحك.

فردت فاطمة:

– قلت إنه ضاع

– حسناً سنفتش البيت إذن.

www.alkottob.com

فتدخل المختار موجهاً كلامه إلى الأم:

– دعي ابنتك تسلم الجواز يا أم قاسم، فهذا من الأفضل لكم.

أصرت فاطمة:

– جوازي ضاع من زمان.

كانت أنفاسها تتصاعد باضطراب، فقالت: –إذا كان من شيمتكم دخول بيت لا يوجد فيه إلا نساء وتقوموا بتفتيشه فافعلوا. وسأصرخ وألم كل من في الحي ليروكم.

قالت ذلك بصوت مرتبك، وكانت قد جهزت هذا الرد بعد أن صاغته وفكرت به طويلاً من قبل.

خرج قاسم في تلك اللحظة بعد أن تأكد له أنهم لم يأتوا في طلبه. وحين رآه رجل المخابرات قال ساخراً:

– إذن البيت ليس خالياً من الرجال كما ادعيت!

فاحمر وجه فاطمة ولعنت قاسماً في داخلها. ثم قالت بعد أن أسعفتها فكرة تذكرتها:

– وهل لديكم أمر تفتيش؟

رد رجل المخابرات:

– لست بسيطة على كل حال! وبان الحزم في لهجته: – فلتعلمي أن أمر التفتيش ليس بالأمر الصعب.

ردت فاطمة:

– احصلوا عليه أولاً إذن!

قال الرجل بلهجة مستفزة:

– إنك لا تدركين مع من تتعاملين. سلمي جوازك وإلا..

ثم نظر إلى قاسم وسأل:

– ومن أنت؟

فأجاب قاسم:

–أنا أخوها.

اتجه الرجل نحو فاطمة وقال:

www.alkottob.com

– إذن سنعتقل أخاك بدلاً منك.

فتدخلت الأم متوترة:

– ولماذا تعتقلونه؟ هل فعل شيئاً مخالفاً للقانون؟

– لا شيء، لكن ابنتك فعلت!

فلطمت الأم وجهها:

– وماذا فعلت ابنتي. انكم تتجنون عليها. اخرجوا من بيتنا. إنكم قليلوا حياء فقاطعها الرجل:

– احفظي لسانك أيتها العجوز!

وأشار إلى رجال الشرطة، فتوجهوا نحو قاسم الذي احتج:

– هذا ليس عدلاً. أنا لم أفعل شيئاً ولن أذهب معكم.

فقال الرجل بلهجة صارمة وهو ينظر إلى فاطمة.

– ونحن لا نستشيرك في الذهاب. ستأتي معنا وسنطلق سراحك حين تأتي أختك وتسلم جواز سفرها.

اقترب منه رجال الشرطة فتراجع إلى الوراء نظرت الأم إلى المختار متوقعة أن يفعل شيئاً، لكنه كان صامتاً مطأطئاً رأسه، فاتجهت بسرعة نحو قاسم وأمسكت به تحاول حمايته، فدفعها أحد رجال الشرطة بقوة لتقع على الأرض صارخة، وصرخت معها في تلك اللحظة مريم وهي تراها ملقاة على الأرض عارية الرأس فركضت نحوها والأم ما تزال متشبثة بقدم قاسم الذي كانت زوجته قد راقبت المشهد في البداية بصمت لكنها لم تتوقع نهاية كهذه، فتقدمت محاولة تخليصه من بين أيديهم وتراجعت إلى الوراء، حين دفعها أحدهم بقوة. أما الآخر فاتجه فوراً بعد أن دفع الأم وراح يشدها من ثوبها إلى الخلف كي تفلت قدم ابنها.

ولم تستطيع مريم أن ترى أمها التي تقارب الستين من عمرها ملقاة على الأرض عارية الرأس والشرطي يشدها، فتقدمت بسرعة لتدفعه بعيداً عنها بعنف وأنهضتها.

ورأت مريم وحشاً جديداً كشر عن أنيابه.

وحشاً سمعت عنه الكثير لكن عينيها لم تتحسساه من قبل

كان يختلف عن كل الوحوش التي صادفتها

كان أكثرهم بطشاً وقسوة

www.alkottob.com

كان أوقحهم وأعنفهم

كان أضخمهم وأشرهم

جروا قاسماً وأجلسوه في سيارة الجيب التي قدموا فيها

انطلقوا وبقيت زوجته تلطم وجهها وتبكي. أما الأم فقد أرادت أن تفرغ كل ما أصابها من إهانة وحزن وحنق في لعنات ودعوات كثيرة أطلقتها وراءهم.

لم يدم اعتقال قاسم طويلاً، فقد أطلقوا سراحه بعد يومين حين تدخل زوج شماء وعين محامياً. وتسلمت فاطمة دعوة رسمية لمراجعة دائرة المخابرات. فتوجهت إلى هناك في الموعد المحدد تاركة جواز سفرها في البيت. وحين عادت عند الظهيرة سردت تفاصيل تحقيقهم معها، وقالت إنهم أصروا على أن تسلم جواز سفرها، وحين يئسوا هددوها بأنه وإن بقي في حوزتها فإن ذلك لن يعني إمكانية حصولها على وظيفة بعد التخرج.

بقيت فاطمة بعد تلك الأحداث كئيبة مهمومة وباتت تميل إلى الوحدة حتى إن إنهاء مريم للمدرسة ونجاحها بتفوق لم يبعثا في نفسها فرحاً كبيراً.

www.alkottob.com

20

ظلت فاطمة تقف في باب الغرفة تنصت إلى ضجيج السيارة التي توقفت أمام البيت، ولم تذهب إلى المطبخ لتدارك ما اقترفته مريم حين دلقت سطل الماء على الأرض.

من عساه يكون زائر المساء هذا؟

انقبض قلب الأم حين طرق الباب فارتابت وشربت الماء القليل في الكأس وقالت لمريم:

–لعله شخص جاء لزيارة قاسم اذهبي وناديِ أخاك.

وقامت بتثاقل وهي تفكر أن زوار قاسم ليسوا من أصحاب السيارات، وأن شماء كانت في زيارتهم نهاراً ولن تعود مساء. فمن سيكون زائر المساء هذا؟!

ذهبت مريم إلى بيت قاسم واتجهت فاطمة نحو باب الباحة. وبعد دقيقتين عادت مريم لتخبر أن قاسماً غير موجود في بيته، وإذا بفاطمة واقفة في الباب تدعو باحترام شديد أحدهم إلى الدخول كانت الأم واقفة في الشرفة بانتظار التوضيح من فاطمة التي قالت لها:

– هذا زوج صديقتي يا أمي.

رحبت الأم به بتحفظ وبدا لمريم أنها رأته من قبل لكنها لم تتذكره ورحبت به كذلك.

دخل الضيف غرفتهن ودخلت الأم وراءه، أما مريم فاستوقفت فاطمة في الباب لتستوضح هويته، فأجابتها فاطمة بسرعة:

– أحد الرفاق، ودخلت.

استغربت مريم الأمر فما الذي يجيء بأحد الرفاق لزيارتهن مساء جلسوا جميعاً متحفظين، فبادر الضيف كلامه موجهاً حديثه إلى مريم:

– وصلت الموافقة على طلبك للدراسة في الاتحاد السوفييتي وقد حصلت على مقعد في إحدى جامعات موسكو، أعلمنا بالموافقة قبل عدة أيام لكنني شغلت في الفترة الماضية ولم أستطع إعلامك قبل الآن.

كانت المفاجأة أقوى من أي تعليق يمكن أن يدور بخلد مريم فصمتت

www.alkottob.com

وشعرت بالدم يتدفق بقوة إلى خديها. أهو وقع المفاجأة، أم الفرح، أم الخجل من هذا الرجل الوقور الذي كلف نفسه عناء القدوم إلى بيتهم من المدينة المجاورة في ساعة كهذه ليزف إليها الخبر.

حاولت أن ترد بشيء لكن قاموسها فرغ فجأة من كل الكلمات، حتى أسعفتها فاطمة بالسؤال:

– أي جامعة في موسكو؟

– لا أعرف بالضبط، لكن على الأغلب جامعة موسكو.

– وأي تخصص؟

صمت الرجل قليلاً ثم قال:

– غير متيقن لكن هذه ليست بالمشكلة، فهناك ستلتقين الأصدقاء (وعنى الرفاق) وسيرتبون موضوع التخصص الذي تريد.

بقيت الأم صامتة. فاستطرد الرجل موجهاً كلامه من جديد إلى مريم:

–يجب عليك في اليومين القادمين أن تسافري إلى العاصمة من أجل تقديم الوثائق اللازمة إلى السفارة السوفييتية لتحديد موعد السفر.

وراح يشرح أي أوراق يجب أن تأخذها معها، ومواعيد عمل السفارة، ثم هم بالخروج فاستوقفته فاطمة لتناول القهوة، لكنه اعتذر وخرج، ثم جلس في سيارته وانطلق.

كانت الطريق أمام بيتهم ترابية فأثارت السيارة زوبعة غبار صغيرة.

عادت الأم وبناتها إلى الغرفة وما أن دخلن حتى سألت الأم باضطراب:

– ألا شرحت لي الأمر؟ فأنا لم أفهم شيئاً.

لم تعلم الأم بسفر مريم من قبل لأن الموافقة لم تكن مؤكدة فراحت فاطمة تشرح لها الموضوع، وبقيت مريم صامتة تستمع إليها وكأنها نفسها لا تعلم بالأمر.

الزوبعة التي أثارتها زيارة ذلك الرجل لم تعكر الجو وحسب. لم تستطع بعدها فاطمة العودة إلى كتابها، وجلست الأم على فراشها بعد أن تهيأت للنوم دون أن تدلي بالكثير من الأسئلة كعادتها بل كانت أسئلة متقطعة يتخللها صمت مشحون بهواجس وشك وقلق:

– أيعلم قاسم بالموضوع؟

www.alkottob.com

ردت فاطمة على الأم؟

– سنخبره حين يأتي.

– وإذا سافرت، فمتى ستعود؟

ردت فاطمة بطريقة حازمة:

– إذا سافرت يجب عليها أن تكمل دراستها أولاً ومن ثم تعود، وإلا فلم السفر من أصله؟

وساد الصمت المشحون من جديد. كانت الأم تدرك أن الإجابة عن سؤالها القادم سترعبها فترددت في الإفصاح عنه وبعد فترة تجرأت وسألت:

– وكم من السنين يستدعي ذلك؟

فردت مريم:

– ست سنوات يا أمي.

أحنت الأم رأسها وراحت تعبث بكفيها، تفركهما وتمسدهما، كأنها تستحثهما على فعل شيء، لكنها كانت تشعر بضعف شديد دب فيهما فحافظت على الصمت. إنه ليس بالحدث العابر الذي تستوضحه بالأسئلة إرضاء لفضول ما. وليس بالخبر المثير الذي يصبح مدار حديث قاتل لساعات الملل. إنه أحد الأمور التي قل ما تحدث وتمس شيئاً في الصميم، تعكر رتابة حياة مستكينة، فلا تعود الأسئلة ولا الأجوبة قادرة على أن تعيد إلى الروح طمأنينتها وهدوءها، وراحت تفكر: لماذا السفر؟ لماذا لا تدرس هنا كباقي أخواتها؟ ولماذا الهندسة؟

في تلك اللحظة لم تعنِ لها كلمة مهندسة أي شيء، ولم تبعث أي فخر في نفسها، بل كانت تتساءل: أيبرر كل ذلك ألم الفراق ولديها من الألم ما يكفيها؟

انتبهت مريم لصمت أمها، وبدت لها حزينة وضعيفة، وشعرت بفكرة تنخر قلبها: ست سنين!! هل ستقوين على انتظاري. وقفزت كمن لدغ فجأة، فخرجت من الغرفة وانخرطت في بكاء صامت ولم يحد من بكائها دخول قاسم باب الباحة الخارجي.

سمعت الأم صوت أقدامه فنادته بصوت عال. جلس وراح يستمع إلى فاطمة وهي تخبره بأمر سفر مريم. وجلست الأم تنظر إليه لعله يحتج ويرفض فيطفئ ما في قلبها من نار فتطمئن وتعود لممارسة حياتها وكأن شيئاً لم يكن، وكأنها رأت

www.alkottob.com

في منامها القصير قبل قدوم ذلك الغريب كابوساً مزعجاً أفاقت منه وقالت لنفسها "لعله خير" ونسيته.

وكعادته خيب قاسم أملها فسأل مريم:

-ستسافرين إلى روسيا إذن؟

ردت مريم بصوت منخفض: -نعم.

-وستدرسين الهندسة؟

فقالت الأم محاولة حث قاسم على الاحتجاج:

-لا أعرف كيف تسافر فتاة في الثامنة عشرة من عمرها وحيدة إلى دولة غريبة. ففي أي زمن نعيش، لا أدريّ

وتوجهت إلى مريم:

-حين سافرت شماء إلى العاصمة القريبة ترددنا وقلقنا. أما أنت فلا تعجبك سوى البلاد البعيدة.

خافت مريم أن يتأثر قاسم فعلياً بكلام الأم، لكنه فاجأها بالقول دون أن يولي كلام أمها اهتماماً:

-حين ستعودين مهندسة سنعمل معاً في البناء!

ولم تفهم مريم أكان جاداً أم ساخراً؟

تساءلت الأم مضطربة وهي تشعر بأن الأمور باتت تتطور بشكل جدي دون أن تستطع إيقافها:

-ألا تمانع في سفرها؟

فرد قاسم باستغراب مفتعل:

-وهل تستشرنني الآن؟ لقد فهمت أن فاطمة تخبرني وحسب، فما قيمة رأيي حين أكون آخر من يعلم؟

زاد اضطراب الأم، فقالت:

-ولكن..

ولم تدر بماذا تكمل كلامها. فصمتت بحزن. حاولت فاطمة أن تطمئنها:

-لا تقلقي يا أمي، ستمر السنوات دون أن تشعري بها، وستعود مريم إليك مهندسة تفتخرين بها.

www.alkottob.com

راح قاسم يسأل عن تفاصيل الموضوع وعن وقت السفر وعن أمور أخرى لا تهم الأم بشيء، فاستمرت صامتة تفكر بالسنوات الطويلة التي ستضنيها.

خرج قاسم. وسكن الليل، وأوى كل إلى فراشه.

وبينما كانت الأم تطلق تنهداتها كانت مريم تنصت إلى صوت السيارات الذي لا ينقطع في ذلك الشارع المحمل برائحة السفر. كان يهيج في داخلها حنيناً إلى عالم بعيد فتشعر بالفضول والذعر والشوق معاً،

يمتزج في ذهنها حزن أمها بصوت السفر،

يمتزج الذعر بالحنين،

وتغفو على آهات أمها وضجيج السفر.

21

مرت أيام عشرة بعد ذلك اليوم سريعة، متراكضة تحمل إليهم موعد الرحيل. عشية السفر لم تشأ شماء أن تودع مريم، قالت وهي خارجة:

-إنني لا أطيق الوداع. لنفترق وكأننا سنلتقي غداً من جديد.

ولم تتمالك مريم نفسها فحاولت الاقتراب منها كي تحضنها، لكنها ابتعدت عنها راجية:

-أرجوك يا مريم، لا تستفزي دموعي!

وركضت نحو سيارة زوجها فجلست فيها لتنطلق السيارة كالسهم. أدركت مريم أن شماء كانت مثقلة بدموع حارقة، فهربت لتحترق بها وحيدة.

أما عائشة فقبلت مريم طويلاً، حضنتها وبكت، ولم تزودها بكثير من النصائح كما كانت تفعل مع شماء. وقالت وهي تمسح دموعها:

-حافظي على نفسك هناك وعودي سريعاً مهندسة نعتز بك.

وصار للحزن في تلك الليلة مخالب تجرح روح الأم.

فتمنت أن تمد يديها لتغلق بهما مخرج الشمس.

لكن الشمس أشرقت سريعاً وجاء الصباح.

جهزت مريم نفسها واستعدت. وراحت تودع كل شيء في البيت، حتى الغرفتان الطينيتان أحبتهما في تلك اللحظة. تظاهرت بنسيان شيء في المطبخ

www.alkottob.com

فتوجهت نحوه، وقفت في داخله، وحضنت بنظراتها آخر مرة كل شيء فيه ونظرت إلى المكان الذي كان ينام فيه أبوها وبكت. وبحثت عن سكينه وقبلتها وضمتها إلى صدرها.

ثم دخلت الغرفة الأخرى ونظرت إلى الزوايا التي طالما جلست فيها، إلى السقف وجحوره وقالت في نفسها: ما زال صامداً! وتمنت أن يبقى هكذا إلى حين عودتها.

أحست أن الجدران مشبعة بأنفاس طفولتها، وخيل إليها أن الغرفتين تبكيانها، وستدلف قريباً من السقف قطرات دمع. وظلت تحدق إلى الفراغ والشقوق والجحور وتبكي إلى أن سمعت صوت زوج شماء الذي أتى ليقلها إلى المطار، فخرجت. راح قاسم وزوج شماء يضعان الحقائب في صندوق السيارة.

ودعت مريم أطفال قاسم وزوجته، واستعدت فاطمة للانطلاق معها. جلس قاسم في المقعد الأمامي، وحين همت فاطمة بدخول السيارة، قالت الأم:

–دعوني أذهب معكم

فردت فاطمة:

–لا يا أمي. من الأفضل أن تبقي هنا. فالطريق طويلة ومرهقة وسريعاً ما ستأتي عائشة فلن تبقي وحيدة حتى عودتي.

ثم دخلت السيارة وجلست في المقعد الخلفي تنتظر مريم.

اقتربت مريم من أمها. ها إن اللحظة التي تخافها قد حلت، وستنهار لا محالة، وأحست بيدي أمها تلتفان حولها وكأنهما لن تفلتاها أبداً، لم تكن نفسها تود الإفلات في تلك اللحظة. امتزجت دموعهما ودقات قلبيهما، وحطم البكاء أي كلام يمكن أن يقال.

بكت الأم بصوت عال ولم تقوَ على قول شيء.

وبكت مريم حتى تمزقت كل أوتار حنجرتها فلم تقل لأمها "وداعاً".

استحثها قاسم على الركوب كي لا يتأخروا عن موعد السفر، فأفلتتها الأم. دخلت مريم السيارة وجلست وراحت تنظر إلى أمها التي وقفت مسندة ظهرها إلى السياج وهي تخفي يديها وراء ظهرها، فقد خذلتاها ولم تقويا على الإمساك بمريم فراحت تحدق إليها.

انطلقت السيارة، ورأت مريم عيني أمها تنطلقان وراءها.

www.alkottob.com

ابتعدت السيارة واختفت الأم عن ناظريها، لكن عينيها بقيتا تركضان وراءها تتعلقان بها، ترجوانها أن تكف عن هذا المزاح الثقيل وتعود، ثم تروحان تعاتبانها.

ابتعدت السيارة كثيراً، وتعدت حدود القرية وعينا أمها لا تتراجعان، رأتهما وقد تعبتا من الركض وراءها.

رأتهما تلهثان، تبكيان، ترجوان.

لكن السيارة تسرع مبتعدة بها.

وعينا أمها لا تكفان عن الركض وراءها واستجدائها، حتى وصلت السيارة المطار.

مر الوقت هناك سريعاً، وكانت مريم تروح وتجيء باضطراب، وتشعر لحظاتٍ بأن كل ما يحدث غير واقعي، وأنها لا بد أن تستيقظ في اللحظة التالية لتجد نفسها في غرفتهم فتخرج إلى المطبخ تطالعها أمها هناك وهي تقوم بعمل ما، وتجد كل شيء في مكانه وكأن عاصفة لم تثر ولم تبعثر الأشياء والأفكار والعواطف.

أفاقت على ضجيج الطائرات، وتنبهت إلى أنها واقفة أمام فاطمة لتودعها.

-فلتبكي إني أحب عينيك حين تبكيان. إنهما تزدادان جمالاً! ألم يقل لك أحد ذلك من قبل؟!

ضمتها فاطمة بشدة وقبلتها فبللتها بالدموع وابتعدت. ثم اقتربت مريم من قاسم. وقفا تفصلهما مسافة قصيرة. ارتبكت ومدت يدها، لكنه شدها إليه وحضنها. وأحست بشيء ينفجر في داخلها: آه ما أجمل وأتعس هذه اللحظة! لماذا لم يحدث ذلك من قبل؟!! قبلها على خدها وأحست بشعر ذقنه يخز وجهها وقلبها، وتمنت بصدق في تلك اللحظة أن تبقى، ثم ضمها زوج شماء وتمنى لها التوفيق. وانطلقت.

جلست مريم بمحاذاة النافذة الصغيرة في الطائرة واستعدت لمراقبة بلدها من فوق. حلقت الطائرة. وقررت مريم في داخلها أنها سترى الآن قريتها الصغيرة، سترى أسطح البيوت، وستميز بيتهم، وسترى نقطة سوداء تتحرك في ساحته. وستفهم أن تلك النقطة هي أمها. ستراها وستعرف ماذا تفعل في تلك اللحظة، وقد تكتب عن ذلك في رسالة تخطها ما أن تصل.

ارتفعت الطائرة عالياً، وحدقت مريم من خلال النافذة فلم تر قريتها ولا بيتهم ولا نقطة سوداء. رأت مساحات كبيرة تكسرت الحدود بينها وذابت جميعها في

www.alkottob.com

أصفر لا متناه تنتصب الشمس فوقه وتناغيه بألسنتها المشتعلة فيزداد اصفراراً.

حلقت الطائرة مبتعدة ببطء عن الأصفر.

وتباعد عن مريم ذلك المكان،

تباعد عنها ذلك الزمان،

ولم تكن تدرك وقتئذ أنهما سيستمران بالتباعد وإلى زمن طويل قادم!

إلا عينا أمها.

النهاية

■■■■

www.alkottob.com

هذا الكتاب

تصور هذه الرواية قسوة الحياة في الريف ولا سيما بالنسبة إلى الفتيات المتعلمات المكافحات في مجتمع أبوي جائر، فيتكشف فيها نشوء الوعي المتقدم بالمعاناة الاجتماعية واكمال التحصيل، والعلاقات الناشئة بين الجيل الجديد في الجو الجامعي.

❑❑

www.alkottob.com

رقم الإيداع في مكتبة الاسد الوطنية :

سقف من طين :: **روايـــــــة**/ كفـــى الزعبـــي- دمشـــق : اتحاد الكتاب العرب، 2000- 111ص؛ 24سم.

1- 813.03 ز ع ب س 2- العنوان

3- الزعبي

ع *1849/ 10/2000:* *مكتبة الأسد*

❑❑❑

www.alkottob.com

رقم الإيداع في مكتبة الاسد الوطنية :

اختراع الخراع :: تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي/ تحقيق فاروق اسليم- دمشق : اتحاد الكتاب العرب، 2000- 142ص؛ 24سم.

1- 811.009 ص ف د ا 2- العنوان

3- الصفدي 4- اسليم

ع *2000/10 /1850:* *مكتبة الأسد*

□□□

www.alkottob.com

هذا الكتاب

دراسة في مخطوط شهير لصلاح الدين الصفدي، يتميز بالغرابة في انتقاء الموضوعات، مزين بالسخرية والهزل، ضمن أسلوب جميل يذكرنا ببخلاء الجاحظ، وأخبار الحمقى لابن الجوزي، وقد خطه الصفدي ليسخر من علماء عصره وقادته، وأسلوبه ينزع إلى تبين المعلومة.

❑❑

www.alkottob.com